www.alkottob.com

www.alkottob.com

الدفلـــى

www.alkottob.com

الحقوق كافة محفوظة
لاتحاد الكتّاب العرب

البريد الالكتروني: E-mail : unecriv@net.sy
aru@net.sy
موقع اتحاد الكتّاب العرب على شبكة الإنترنت
http://www.awu-dam.org

www.alkottob.com

تصميم الغلاف : ميرنا اوغلانيان

❑❑

www.alkottob.com

ماري رشو

الدفلـــى

- روايــة -

www.alkottob.com

من منشورات اتحاد الكتاب العرب

دمشق – 2002

www.alkottob.com

www.alkottob.com

(صــــلاة)

(أعوذ بالله من الشيطان الرجيم)
(لكن!! نجّنا من الشرير..)

www.alkottob.com

www.alkottob.com

www.alkottob.com

إهـــــداء

إلى

زينة – صديق – هنادي – ربيكا – حنان – دينا –

لما – مازن – جابر – آنّا ميشيل –

ماري.

**

www.alkottob.com

www.alkottob.com

بقيت عيناي على المسافة التي انطلق عبرها الرجل. كنت أجلس على مقعدي المعتاد. أخيط ثوب السيدة الثريّة، وأحسب الأجر الذي سأتقاضاه، بينما ألعن عمل الخياطة ومخلّفاتها. أطلت النظر والتفكير معاً. ليست المرة الأولى التي أجلس فيها هنا، وليست المرة الأولى التي أرفع رأسي أو ألقي بصري نحو تلك النقطة ذاتها. سحبت بصري ثانية. كنت متفاجئة لا أكثر. لم أكن خائفة، فهذا طبيعي، وهو ما نطلق عليه خداع بصر، أو كما يقال ألاعيب بصر. لكنه مرّ بسرعة كبيرة. كأنه يطير، فقد تزامنت رؤيته مع رقّة هدبي. لكن! كيف لم أره في السابق؟ هذا مقعدي ومن هنا أجول ببصري. التفتّ إلى الوراء. كانت الستائر مسدلة، وعلى امتداد الممشى القصير نسبياً أمكنني مشاهدة جزء من غرفة الطعام المفضية للصالون. هل هو زجاج الخزانة؟ لا أعتقد. إنه رجل حقيقي. كيف حدث ذلك؟ حدث لأن البصر أحياناً يعطي صوراً لا علاقة لها بالحقيقة. هذا ما حدث. ليس من خيال أو صورة أو تهيؤ. إنه انعكاسات لشيء ما، ربما عكسها تفكيري، أو تعبي، أو قلقي على ابنتي أو ابني.

عدت للعمل. كان الجميع نياماً. ابنتي وزوجها وابناها، ورحت أمارس هوايتي المفضّلة في أوقات الوحدة. كأن أستمع إلى المذياع أو أحاول الغناء. في الحقيقة لا أغني بصوت عال، مع أنني أهوى ذلك، فألجأ إلى غناء خافت، أو أغني في أعماقي. كان هذا أجمل ما أفعله، خاصة وأنا أحمّل الحالة حناناً وحنيناً، وأستعيد تلك الأغنيات التي أحببتها وأنا صغيرة. كانت أمي تردّدها بحنين أيضاً، وأستطيع الآن استيعاب ذلك تماماً. إنه الاستغراق الجميل ما بين الكلمة واللحن والذي عليه تقع مسؤولية تفريغ شحنات التعب والأسى والقلق، وخلق جو من الانطلاق نحو أمل موعود، فتسهل الأمور، وتبسط الحياة.

تذكّرت الرجل ثانية. أمعنت النظر في النقطة التي عبر منها. استطعت استعادة صورته. كان متوسط الطول، برأس صغير قليلاً. يرتدي سترة بلون بني

www.alkottob.com

فاتح، أما بنطاله فلم يتح لي الوقت ملاحظة لونه، ربما كان داكناً بعض الشيء، أو بنياً غامقاً. ضحكت للصورة، وعدت لعملي. كان علي إتمام الثوب واغتنام فرصة نوم الصغيرين، فقد تتغير الأمور فجأة، ويتحتّم علي ملاعبتهما، أو مشاهدة الصور المتحركة التي يحبانها.

شعرت بالسعادة، وأنا أستعيد الأيام الصعبة التي مررت بها. يوم مات زوجي إثر نوبة قلبية مفاجئة. شعرت بأنني صفر اليدين أمام متطلبات كثيرة، فلم نكن نملك سوى هذا البيت الكبير والمتعدّد الغرف، والذي ورثه زوجي عن أسرته. أما أنا فورثت ميولاً فنية. كنت أحب الرسم وأشعر برغبة تجتاحني بين الفينة والفينة لتصميم زيّ ما. أمّا الحاجة فكانت أم جميع الأعمال، وهذا ما جعلني ألجأ للعمل، ولفن الخياطة بالذات، أفرغ ميولي وأسدّ ثغرات الحاجة والعوز. كان أهم ما أقلقني هو رغبة ابني بالسفر لتحصيل العلم، والوقوف أمام العجز الذي سيلاحقني إثر متطلباته التي لا تنتهي وهو في بلاد الغربة.

شعرت بالسعادة أيضاً وأنا أتذكّر أيام العزلة والشقاء اللذين عشتهما، حين هربت ابنتي مع شاب لا يعرف معنى المسؤولية. تعتقد بأنها تحبه. لم تكن تتعدّى السادسة عشرة من عمرها آنذاك، أما هو فيكبرها بعامين، ويستطيع ممارسة هواياته السابقة، كأن يلاحق الفتيات بسيارته الخاصة، والتي ابتاعتها له أمه إثر موت أبيه، أمه التي يستنزفها باستمرار، مستغلاً حبها، فتحنو عليه بعد أن أصبح مسؤولاً عن زوجة وابن، وبعد أن تغيّر مجرى حياته بزواجه المباغت، والذي لم تكن تتوقّعه، فأصبح عاطلاً عن كل شيء، خاصة الدراسة، فتغدق عليه المال الذي يبعثره كيفما اتّفق.

لم تكن ابنتي سعيدة مع زوجها وأمه، لكنها لم تعلن ذلك، فقد ورثت عن أبيها مقدرة الصبر والتحمل، فعلى صغرها تميّزت بالذكاء الذي لم تجد استخدامه، وبالهدوء الجميل الذي أضاف عليها الرصانة. كنت أراقبها بذبولها وهزالها، وأصاب بالخيبة، وأقضي الساعات بالتفكير والتخطيط، فعلي إنقاذها من مصير رمت نفسها فيه في ساعة ضعف، إلى أن استفاقت امرأة لابدة في أعماقي، فثرت وهدّدت، وأعلنت وجوب الطلاق، فولدت المشاكل بسرعة فائقة. تمردّت ابنتي لأول مرة، وعادت إليّ تصطحب ابنها الأول (رافي) وفي أحشائها الآخر، وأصرّت على موقفها الذي فاجأني. لم اكن أصدّق ذلك. كانت واثقة من حبه لابنه، ومن اللحاق به وبها، وربما بالطفل القادم، وربما لإصرارها، أو لوثوق الزوج

www.alkottob.com

من حقيقة تمرّدها الذي فاجأ الجميع، أو الإعلان عن عودتها للدراسة. أمور كثيرة ساهمت بقرار المجيئ في ساعة غير منتظرة، لتنغمس ابنتي بمسؤولياتها المتعدّدة، خاصة وهي تتجب طفلها الثاني، وتغرق بالجديد متجاهلة الزوج الذي أصبح له وجهان، وجه للبيت وللتعامل معها، ووجه آخر يمارس فيه أحلامه. كنت على يقين من أن له عالماً آخر خارج إطار الزوجية. كانت أخباره تأتيني ببساطة، فبحكم عملي مع نساء الحي اللواتي يحترفن الثرثرة ونقل الأقاويل. استطعت تكوين فكرة عن علاقته بإحدى الفتيات العابرات، فخفت على ابنتي المطمئنة أن تصاب بالقلق ثانية، ورحت أجهد للتوصّل إلى الحقيقة، أراقبه كل صباح. أصطنع الانهماك بقطعة قماش بين يدي أو بثوب، وأسترق النظر إلى طريقته في اختيار ما سيرتديه في الصباح، أو انتقاء العطر، ثم وقفته أمام المرآة، وهو يتجاهل أصوات ابنيه أو وقوع مشادة بينهما. يصفر لحناً ويخرج، فأنادي العاملة أو أضع ما بيدي وأنهض أعاون ابنتي المنهمكة بترتيب الأسرّة، أو تحضير وجبات الطعام للصغيرين، وتكون على وجهها ملامح الطمأنينة، فيتفاقم قلقي، وأصاب بالغيرة وأقمع صوتي، عليّ مراعاة مشاعرها، فلها صفات الرهافة والحساسية، وطاقات من الحب، أشعر بالعجز أمام جمالها، وأقسم بيني وبين نفسي على إيجاد ما يردع (ظافراً) زوجها عن أفعاله القذرة، خصلة من شعرها تعادل عشرات النساء، ولا أتوانى عن نعته بأحقر الصفات، وقد يشتد انفعالي الذي أفرغه بالحب للطفلين اللذين ملأا حياتي غبطة وسروراً، فأعتقد بأنهما البديل عمّا يحدث، أو أن باستطاعتهما العيش بعيداً عن أبيهما الذي لا يعرف قدر أمهما، وعليهما في يوم ما الوقوف إلى جانبها وتعويضها بالحب والحنان، فأشعر فجأة بالغضب، وأستنفد قواي للبحث عن طريقة تعيد الأمور إلى مجاريها، وأكتشف أن الطاقة التي تعمل في أعماقي لا تعيقني عن العمل، فتخرج الأثواب جميلة أنيقة. غير أنني استعضت عن الغناء أو الاستماع إلى المذياع بالتخطيط والتفكير، فأهم ما يشغلني هو راحة ابنتي. طفلتي المدلّلة التي أحبها بجنون، وكنت ألاحظ تعاطفاً شديداً من العاملة نحوي، فتهرع لمساعدتي أو لمساعدة ابنتي في أعمال البيت أولاً، متغاضية عن أهم ما يشغلها في إتقان مهنة الخياطة، تنظّف الأرض، تجلي الصحون، أو تلاعب الطفلين، ثم تتفرّغ للعمل معي. كانت قد حفظت مجمل المواعيد، فتذكّرني متعمّدة الأسبقية في القول، هذا يوم التفصيل أو هذا يوم القياس، تقف قربي بعينين مفتوحتين. تلتقط الطريقة وكيف سأفرد القماش على الطاولة المخصّصة. أرتّب قطع (البترون) الورقية. أضع الدبابيس.

www.alkottob.com

أستعمل (المتر)، ثم قطعة الطبشور. أرسم على القماش، وحين أتأكد من صحة ما فعلت، أباشر بالقص، فتتناول مني كل قطعة على حدة. يكون (التسريج) قد حلّ أوانه. تبحث عن النقاط المرسومة بدقة، وتبدأ التركيب، حسب الإشارات. الخصر والصدر والأرداف، الطول والأكتاف، ثم يأتي دور الأكمام، فالياقة. كل ذلك يخضع لرغبات صاحبة الثوب، وما أشارت إليه. هكذا تصبح القطعة جاهزة من أجل إجراء (البروفة). تعلّقها على حبل مخصّص. تراقبها بإعجاب، وكأنها تفكّر بصاحبة الثوب، متى ستأتي وتراه وتبدي إعجابها به.

***

www.alkottob.com

لم يستطع العمل إبعادي عن التفكير في أمور ابنتي، أو التوقف عن البحث من أجل مصالح زواجها، فالقلق يرافق أيامي، وأرجع صمتها و هزالها إلى صراع داخلي في أعماقها، لابد أنها توصّلت إلى حقائق بخصوص تصرّفات ظافر، وأرجعتها إلى علاقاته التي لم يعد يستطيع إخفاءها. فأرى نفسي غارقة في دوّامة البحث في كل ما يجري حولي. ماذا قال؟ ما الذي سيقوله؟ ما ردّة فعل ابنتي؟ هل ابتسمت؟ هل قالت شيئاً؟ كيف يعاملها؟ كيف يعامل ابنيه؟ هل يحبهما؟ هل هو مولع بهما؟ وحين يخرجان معاً أراقب طريقتهما في اللباس، هل كل منهما راض عن الآخر؟ وحين يعودان أراقب تعابير كل منهما علّي أصل إلى تفاصيل تلك الساعة التي غابا فيها عن عيني. أرتاح أحياناً أو أصاب بالخيبة. كنت أعرف ابنتي التي حفظت ردود كل فعل يصيبها، وأوقن كل مرّة من ازدياد جمالها الذي يصقله الحزن، أو يضفي عليه نوعاً من الشفافية، وأعترف بيني وبين نفسي أن ذلك ليس بسبب أنها ابنتي، فهي جميلة فعلاً ولا يحق لرجل مثل ظافر مهما أحبته أو أرادت الوفاء له، أن يجلب لعينيها مشاعر اليأس أو الأسى مطلقاً.

خمس سنوات وأنا أعيش القلق،ومنذ تمرّدها الأول ومجيئها للسكن معي وأنا أبحث عن خطة تعيد التوازن الحقيقي إلى حياتها. أنام وأستيقظ وأعمل دون أن تبرح ذهني، فكيف سأعيد الابتسامة إلى عينيها؟ تلك الابتسامة التي لم تفارقها قبلاً، ما زالت صغيرة. صديقاتها لم يتزوّجن إلى الآن. لم هي تعيش القلق؟ والمسؤولية؟ لم لا يعرف هذا الزوج مكانتها أو موقعها؟ لم لا يقدّر تضحيتها ووفاءها؟ لم ولم؟ وكيف أستطيع جلب الفرح واستعادة البهجة والراحة إلى حياتها. فكّرت كثيراً. كان ذلك يأخذ صحوي ونومي ودقائق يومي. لم تبق فكرة إلاّ وخطرت لي، لم أستمع إلى قصص مشابهة إلاّ وتوجّست. هاجمتني أفكار لها علاقة بالجهل، أو أنا أعتبرها كذلك، ففي قناعاتي أنها لا تمتّ إلى الحضارة، بل لها علاقة بالخرافة، لها علاقة بالتخلّف. أو ليس من يؤمن بالعرافة والغيبيات جاهلاً؟ استبعدت الفكرة تماماً. لم يقع ذلك في برنامجي، إذ أعتبر نفسي امرأة واعية وعلى درجة من الواقعية، أمور تؤهّلني للتفكير بمنطق بعيد عن الوهم. هذا

www.alkottob.com

كان خطّي منذ نعومة أظفاري، ولا أردي الآن لماذا أتذكّر تميماً الذي اتّهمته مراراً بالشعوذة. كنّا آنذاك في مرحلة الصبا. وكان هو يمت إلى إحدى صديقات المدرسة بصلة قرابة، فنجتمع في أوقات متباعدة، نبحث في الطالع أو فيما تقوله الأبراج، فيجلب للجلسة جوّاً ساحراً يصحبه المزاح والنكات، يقرأ لنا الفنجان ويتباهى بالتوصّل إلى قراءة الأفكار والاطّلاع على أهم الأسرار. أذكر أنني خفت منه في إحدى المرّات، واعتقدت آنذاك بميله للشر أكثر ممّا يميل لفعل الخير، وكان هو يتبجّح مدّعياً المعرفة والفراسة والتنبؤات، ويبحث في أمور جديدة علينا، كالجن والشياطين، فأرد عليه في كل مرة:

–هل تؤمن بوجودهم؟

–طبعاً أؤمن. الأساطير اعترفت بهم، والأديان اعترفت. هم كائنات روحانية أو مخلوقات نارية، فإبليس تارة من الجن وتارة من الملائكة، وقد تنزل هذه الملائكة إلى البشر وتقيم معهم، وتنشئ علاقات تسمّى قريناً أو تابعة أو رئياً.

–اصمت يا تميم.

–ولماذا أصمت؟ اقرئي الجاحظ والثعالبي، اقرئي ابن الأثير والأصفهاني، والنويري، وقصص كثيرة ومتعدّدة، ألم تسمعي بمصارعة تأبّط شرّاً للغول؟ وزواج (الهدهاد) الملك من (عميرة) بنت ملك الجن، فجاءت الملكة بلقيس، وقصص (عامر الوادي) الذي يستنجدون به، فيعيد لهم إبلهم الضالة؟ وغيرها وغيرها؟ غير أن تلك القصص المدهشة، تنتهي مع انتهاء الجلسة التي حملت بين تفاصيلها الفكاهة واندفاعات الصبا العذبة.

كما تذكّرت تميماً ذلك الصباح، تذكّرت ذلك الكتاب الذي سيكون محور تفكيري أكثر من مرّة في أيام قادمة، ليس بسبب قناعتي أو إيماني المطلق بنصوصه، بل حبّاً في بتجربة قد تكون عابرة، غير أنها تبقى تجربة لا أكثر.

إذن لم يكن مصادفة أن تقع يدي على ذلك الكتاب، فأنا أعرف مكانه، وأكثر تفاصيله. لفت انتباهي سابقاً لتنوّع أبوابه وأبحاثه المتعدّدة، إذ ليس من علاقة بين الإنسان وجسده وعقله وصحة نفسه ووجوده بطريقة علمية أو غيبية إلاّ وبحث فيه بأسلوب ما. أذكر أنني دهشت أكثر من مرّة، وضحكت أكثر من مرّة، وتوقّفت طويلاً أيضاً أكثر من مرّة، فلم أكن لأصدّق أن الإنسان تشغله أمور كهذه. غير أن لذلك الكتاب موقع الحظوة عندي، ولعلّي أحتفظ به لأسباب عدّة، منها قدمه، فأوراقه الصفراء تكاد تتفتّت، أو لأنه فريد في نوعه من حيث المواضيع

www.alkottob.com

المطروحة، أما أهم الأسباب فيعود لاعتباره إرثاً عن أبي، الذي كان مولعاً بطب الأعشاب، والذي أهداه له أحد أصدقائه القدامى، وكان بطبعة قديمة قد تعود لأكثر من قرن من الزمن.

يحمل الكتاب عنوان (الرحمة في الطب والحكمة). أخذت أقلب صفحاته ورقة ورقة، غير أنني غيّرت رأيي فجأة وفتحت الفهرس لأقرأ الأبواب واحداً واحداً. يبحث الباب الأول في علم الطبيعة وما أودع الله فيها من حكمة. والثاني في الأخلاط الأربع، ثم باب الأمزجة، وتابعت القراءة، لتسويد الشعر، لتطويل الشعر، علاج الجرب. علاج الكلف. الرعاف. الزكام. نتن الفم. داء الثعلب. الثألول. تبييض الأسنان. البهاق. الحروق. الجرب. الباسور. الطاعون. الجوع. الحمى. العشق. المحبة. المربوط. إبطال السحر. تقوية الجماع. رد الثيب بكراً. عددت الأبواب. كانت مئتين وخمسة وثمانين باباً. انتقيت منها ما يكتب لعقد زنى الرجل وفتحت الصفحة ورحت أقرأ، وأضحك، وحين أغلقت الكتاب لم يكن في ذهني القيام بأي عمل منها، إذ هيئ لي أنها سخافة كبرى، خاصّة وأن لعقد زنى الرجل أكثر من طريقة، تتخلّلها أرقام وأسماء وكلمات تشبه الطلاسم والأحاجي، ومفردات مثل لحم ضبع أو دهن بنفسج أو أوراق دفلى وغيرها. أبحاث تشبه أحاديث تميم، ولا أدري لماذا تذكّرته وضحكت. كم سيعجبه كتاب كهذا؟ غير أنني فكّرت أكثر بمعاناة الإنسان منذ الأزل وهو يبحث عن الراحة، وعن قضايا شغلت عقله على مرّ العصور والأزمان. تذكّرت (الدريديريين) الذين عاشوا قبل خمسة وعشرين قرناً، فرصدوا الكواكب والأفلاك، ودرسوا طبيعة الغابة والأشجار وعلاقتها بالولادات، كنمو الشجرة مع نمو المولود، أو تشبيه المولود بالشجرة، ثم أشياء كثيرة لها علاقة بالعرافة والتبصير، والسحر والتنجيم، وسكب المعدن، فالإنسان عبارة عن جسد وروح ومعدن، وحين ينقص المعدن من جسم ما فيجب تعويضه بمعدن لتعود له قوّته. هذا هو الإنسان، الباحث منذ الأزل عن أسرار الكون وأسرار الماضي وكيف ينتقل وينطلق إلى آفاق المعرفة.

انتقلت من كتاب (الرحمة في الطب والحكمة) إلى بعض الكتب التي في حوزتي، وكأن ذلك أعادني إلى أيام بعيدة، حين شغلتني القراءة طويلاً، كنت أحب العلوم والفلسفة وما يتعلّق بالطبيعة البشرية، واكثر ما شغلني آنذاك هو البحث في الأسطورة و(الميثولوجيا)، وانتقلت إلى العبادات، والأديان، واستطعت تكوين الأفكار حول تطوّر الإنسان، وانتقاله إلى المعرفة عبر الحقيقة والتفكير

www.alkottob.com

الطويل بأهم قضاياه.

مازلت أحب القراءة وجمع الكتب التي شغلتني عنها القضايا المعيشية. نظرت طويلاً إلى مكتبتي المتواضعة، وعدت للنظر إلى الأقمشة المتراكمة. تراءت لي صورة ابني في الغربة. شعرت بالراحة. عدت ثانية لكتاب (الرحمة في الطب والحكمة) ابتسمت وأعدته إلى حيث كان.

***

www.alkottob.com

لا أرى طفلاً أجمل من (رافي) بعينيه السوداوين ونظراته الذكية المتقافزة، وتعلّقه بي. كان يمكث قربي معجباً. يراقب حركة يدي وتصرّفاتي. كنت جادّة وأنا أطالبه بالابتعاد، لأنني لا أحب هذه المهنة، ولا أريدها أن تتأصّل في نفسه وعقله، مع العلم أنّ الخيّاطين الناجحين والمشهورين هم من الذكور، أنا أكرهها لأسباب تتعلّق بالحظ السيئ لمن يمتهنونها، فأكثرهم يقضي قسماً كبيراً من عمره أرملاً، أو ينعزل صاحبها اجتماعياً وفكرياً، تصبح آفاقه هذا العالم الضيّق، الأقمشة والأثواب والأحاديث التافهة، هل يليق بي هذا اللون؟ أم هذا الثوب؟ ما رأيك بهذا الزي؟ أم تفضّلين هذا؟ ما رأيك بآخر التصاميم؟ إنها دار مشهورة. أجل. أجل، وما أن ينقضي اليوم حتى يبحث عن عزلة تعيد ما أحرق من حريرات، كما يحدث لي، فأرى نفسي متقوقعة أكثر الأوقات، وانحصر خروجي من البيت للتسوّق، لوازم العمل. إبر وخيوط. أزرار ودبابيس وأقمشة، ولولا انتسابي الأخير إلى إحدى الجمعيات النسائية، لمكثت في البيت باستمرار، كنا نلتقي مرّة في مطلع كل شهر، وتحوّلت الفكرة من غاية التسلية والترفيه عن النفس، إلى لقاء مثمر، فترتّب على كل منّا دفع مبلغ من المال يجمع ذلك اليوم لتقبضه إحدانا، وأصبح للقائنا معنى نمضيه بين التسلية والمرح، فأعود إلى البيت وإلى عملي مشحونة نشاطاً ورغبة في المتابعة والاستمرار.

تعلّق رافي بثوبي رغبة منه في مرافقتي إلى السوق. ضغطت على كفّه الصغيرة أعده بذلك. كان أخوه يراقبنا وفي عينيه رغبة مماثلة. كان من الصعب اصطحابهما معاً، خاصّة وأن الصغير مازال يتعلّم النطق والسير. تحايلنا عليه ذلك العصر وخرجنا نهرول بنشوة. إذ تجمعنا البهجة في نزهات كهذه، وكنت أسمّيها نزهة لما تضفي علينا نحن الاثنين من فرح طفولي أحتاج إليه بين فترة وأخرى.

تصادف مرورنا بعد التسوق وفي طريق العودة أمام (فيللا) شدياق. كان الطريق خالياً من المارّين. شددت على كفّ رافي ورحنا نخبّ فوق الرصيف بحركات إيقاعية، ونردّد ما حفظه في مدرسة الروضة من أناشيد وأغان وأهازيج.

www.alkottob.com

كانت (هالصيصان) أهم ما يشغله آنذاك، ثم توقّفنا لنمثّل (جمل ماشي) ثم عدنا للركض ثانية. كانت حاجتي إلى اللعب كبيرة، وكان الفرح الغافي في أعماقي والذي هزم منذ زواج ابنتي قد وجد فرصة للتململ والظهور، واكتشفت أنني أستطيع الابتسام والغناء في كل الظروف، وأن القدرة على الاستمرار تفوق التسليم للمجريات. كانت أعماقي تتفجّر بهجة، وأرجعت ذلك لكفّ حفيدي الذي أصبحت أدين له بطفولتي المستيقظة.

من حديقة (فيللا) شدياق تدلّت أغصان شجرة دفلى وارفة، بأوراقها الخضراء الداكنة، التي تشبه نصل خنجر مدبب الأطراف. حضنت رافي الذي كان يتابع الغناء بلثغة جميلة وبحروف أغنية (شو حلوين؟). قبّلته وهممت بمتابعة السير. تلك اللحظة وبطريقة فجائية تذكّرت كتاب (الرحمة في الطب والحكمة) وتذكّرت باب عقد الزوج عن فعل الزنى، وفعل أوراق الدفلى ووظيفتها. ضحكت وأنا أقطف أربع أوراق – كما تقول الوصفة – وضعتها في حقيبتي وعدت إلى رافي الذي كان ينتظر بلهفة.

انفردت مساء مع الكتاب وأوراق الدفلى. فتحت الصفحة الخاصة بالطلب. كرّرت القراءة عشرات المرّات. حفظت الطريقة. كان عليّ نقل التفاصيل كما وردت تماماً، وهي أن يكتب على الأوراق الأربع ما يعقد عقل ظافر وفكره وذكره عن الحرام، بحق تلك الأسماء، وكانت الأسماء عبارة عن أعداد وأرقام مختلفة.

ربما لم أكن أعتقد بفعلها الحقيقي، فلقد نسيتها للحال، وربما كانت تجربة لها علاقة باستكشاف الحقائق، أو أن اللاشعور يلعب معي، فباستطاعتي التعلّق بالنسمة التي قد تجلب لابنتي الراحة والاطمئنان. أنهيت المهمّة وأودعت الأوراق تحت وسادة ظافر، بحيث لا تكتشف، وعدت للعمل ولحساب أجر الثوب مع تكاليفه الأخيرة، وللتفكير بهذه المهنة التي تدرّ المال دون بركة. كانت ابنتي خلال ذلك تشكو الملل، فقد تحوّلت خلال سنوات خمس إلى امرأة عجوز، تنحصر اهتماماتها بالتربية والطبخ. لقد ضاقت ذرعاً بالمكوث في البيت، أما الدراسة فمستحيلة التحقيق في ظروفها الحالية. ستبحث عن عمل. كانت تنقل رغبتها لصديقة لها على الهاتف وهي تعدّد مساوئ الزواج المبكر. كان رافي وأخوه – الذي أصبح يمشي ويتعثّر ويتكلّم ويلثغ – يصفّقان ويردّدان معاً (هالصيصان)، ويتسلّل صوتاهما عبر السمع كموسيقى عذبة. تلك اللحظة وبطريقة مباغتة، دخل ظافر منهكاً. التفت يمنة ويسرة، كأنه أضاع شيئاً. نادى زوجته ثم ابنيه وهو يتمتم

www.alkottob.com

بأنه اشتاق إليهم.

هل هي أوراق الدفلى؟ ربما، فلقد شاهدت أسبوعاً من عسل بين ابنتي وزوجها، تخلّله الحب والاهتمام والرعاية، وخلال ذلك أنهيت الثوب الأول والثاني والثالث، وجلبت للصغيرين هدايا من لعب وسكّريات. بدت الحياة الزوجية كأجمل ما في الحياة، طغت الأحلام على كل شيء. أصبحنا في أفضل حال. نغفو مع الأحلام، وننهض عليها،كان كل ما يخصّ ابنتي يضجّ بالحياة وقد تحوّلت حياتها إلى حلم يتحقّق للمرة الأولى.

لكن ذلك لم يدم طويلاً، فقد عاد كل شيء إلى سابقه، شعرت بالأسف والخيبة، وأيقنت من أنها محاولة مجدية وحالة جميلة لا نستطيع نكرانها. لكنها مؤقتة، ورحت أتأسّف على نهاية أجمل الأيام. كان صهري خلالها نعم الرجل والزوج الصالح. غير أن صفحة الحب الجميل الذي عاشته ابنتي بصمت طوي أيضاً بصمت، واكتشفنا خلال ذلك ارتياح أم ظافر، التي كانت تبدي استغرابها أمام تصرّفات ابنها الغريبة والمجهولة الأسباب.

* * *

www.alkottob.com

www.alkottob.com

www.alkottob.com

مرّت الأيام ثقيلة، لا شيء فيها يستحق الذكر، عدا حركة البيت والعمل، وعدا ابنتي التي راحت من جديد تشكو الملل. لم ألمها على شعورها الذي يتفاقم مع مرور الأيام، وكأنها تجترّ نفسها. تنهض في الصباح بوجه خائب. تروح وتجيئ خلف ابنيها. تطعمهما. تلبسهما. ترتّب أشياءها. تدخل الحمام. تخرج. تمشّط شعرها. تدخل المطبخ. تعود، وعلى وجهها إمارات الاستسلام. أراقبها خفية. أشعر برغبة في التنهّد أو الغناء، فألجأ إلى خطّ الرسائل إلى ابني. أبثّه شوقي وأحكي عن همومي. كانت رسائلي تروق له فقد علّق في إحدى رسائله، على أنني لو اهتممت بصقل موهبة الشعر، لحلّقت في هذا المجال. كنت أعلم حبه للمزاح فضحكت للملاحظة، غير أن الفكرة استهوتني، فقد حاولت نقل مشاعري بعد ذلك على صفحات الورق، ورحت أخفيها عن الأعين وأعود إليها في أوقات الراحة.

انشغلت من جديد بمراقبة ظافر الذي عاد أسوأ ممّا كان عليه. مرّت أشهر على أسبوع العسل ذاك. تنقّل عبرها من فتاة إلى أخرى. كان يلاحقهن كمراهق صغير، قد يستجبن له وقد لا تحصل الاستجابة، وحين أشرت إلى سلوكه الدنيء ابتسمت أمه، وفسّرت ذلك بسبب زواجه المبكر، وتحسّرت عليه فهو لم يملأ عينيه من مباهج الحياة، لم يعشق أو يكوّن علاقات، وهذه أمور مكتوبة على الشبّان أولاً وأخيراً، اليوم أو غداً. ولابد من أن يأتي يوم يشبع فيه من اللهو ويعود لبيته وأسرته. إنه يحب زوجته، ولولا ذلك لما لحق بها إلى بيت أمها، أمه أحقّ به، ويحبّ ابنيه أيضاً، جميعنا نعرف هذا. ما الذي سأقوله لامرأة جاهلة مثلها؟ صمتّ على مضض، بينما قناعاتي تكبر بأن ابنتي لم تخلق له،وأن فرص النجاح والتفوّق كانت مهيأة لها حتماً، وأن فرصه هو لن تتبدّل في كل الأحوال والظروف.

أصبحت علاقات ظافر مكشوفة بالنسبة لي. عاد يتنظّف ويتعطّر وينشغل بالمرآة والهندام، فكّرت ذلك الصباح بأن أنقل له بعض مخاوفي، وأحدّثه عن هاتف من مجهول، يؤكد وجود علاقة غير نظيفة بينه وبين إحدى العاهرات، لكنه

www.alkottob.com

فهم اللعبة وحاول المراوغة. هذه مؤامرة مغرضة، فما كان مني سوى الإشارة إلى هزال ابنتي الذي لا أعرف له سبباً. ابتسم بمكر وحاول الهروب. استوقفته وقد تفاقم غضبي عليه، وهو العاطل عن العمل ويعيش عالة على أمه وغير أمه. ابتسم بلؤم هذه المرة وترحّم على أبيه الذي لا يشبه غيره، وهو الذي ترك ثروة لا تقدّر،وخرج وهو يدعو لأمه بطول العمر. صفق الباب وراءه بوقاحة.

أجبت عن أسئلة ابنتي ببراءة. لم يحدث ما يستحق الذكر. طفرت دمعتها، فبدت أجمل بشعرها المسترسل وعينيها الصافيتين، لكن الصمت حلّ بيننا. كنت أعلم أن المعادلة صعبة بين بقائها زوجة له، وبين أن تتّخذ موقفاً تطلب فيه الطلاق. أتاني يقين يومها أن التفكير بذلك أدخلها في متاهات المصير القادم، فهي في عمر ستسأل فيه عن طفلين. وعاجزة في الوقت نفسه أمام متطلّبات الحياة. لم تتعلّم. لا تحمل ما يمنحها فرص العمل، كيف ستعيلهما؟ كيف ستخطو بهما إلى الحياة؟ إنهما يحتاجان إلى المزيد، وهي لا مورد لها. ما الذي تفعله بمفردها؟ ما الذي ستقدمه لهما؟ كنت أشعر بمخاوفها، وتمنّيت لو أصرخ بملء صوتي بأنني أقدّم لها حياتي وعمري على ألاّ أرى دمعة حزن في عينيها. أكدّ وأعمل وأفني نفسي ولا أرى الأسى والشقاء يتسرّبان إلى حياتها أو حياة طفليها.

تدهورت العلاقة شيئاً فشيئاً بين ابنتي وزوجها، وحين أسرّت لي ذات مساء عن رغبتها في الطلاق، كانت جادّة جداً، لا أدري لماذا لم تصبني السعادة، فبقدر ما أدهشني القرار بقدر ما جلب لي شعور الخيبة. هل لأنني اكتشفت حزنها الدفين؟ أم لتقوقعها على نفسها؟ كنت أفكّر بها، فما زالت في الثالثة والعشرين من عمرها. ربما تتزوّج ثانية وربما لا. لكني أعاهد نفسي على مساعدتها باستمرار، وهذا ما جعلني أنهض في الصباح الباكر أخيط لها ثوباً خاصّاً. لاحظت كآبتها وعينيها الساهمتين. كانت تخفي أشياء أخرى، وحين استلقت قرب ابنيها سمعت هدهدة حزينة، وأغنية تشبه أغنية كنت قد حفظتها عن أمي، اغرورقت عيناي، وهربت إلى غرفتي، وتذكّرت يوم هربت معه تحت شعار الحب. أيقنت أنها ما زالت تحبه وتريده، وما فكرة الطلاق سوى رغبة في عودته الكاملة إلى حياتها.

أرقت تلك الليلة، بعد كل غفوة كنت أستيقظ. كانت النار تصعد إلى أسي، فأشعر بالاحتراق. أهرع إلى صنبور الماء. أغتسل. أرفع شعري بيدي وألطم فوق وجهي، وأبكي بكاء مراً. كنت على استعداد للتضحية بكل ثمين وغال فداء لراحة قلب ابنتي ونفسها.

www.alkottob.com

أذكر تلك الليلة تماماً. قلّبت إبرة المذياع طويلاً. مررت على جميع البرامج. نهضت. استلقيت. نهضت ثانية. طفت في البيت. في المطبخ. أكلت. شربت. جئت غرفة ابنتي. استرقت النظر إليها. كانت نائمة على جنبها الأيمن وقد عقدت ذراعيها واقتربت ركبتاها، حملت الأسى وعدت إلى غرفتي. ذرفت دمعة. استلقيت على السرير، ومع انبلاج الفجر نهضت وقد تنبّهت جميع حواسي. طفت في كل مكان وأنا أحمل الدهشة. كيف انبثقت الفكرة؟ كيف حدث المخاض؟ كيف وكيف؟ ما الذي ذكّرني بأوراق الدفلى؟ كيف فاتني تفسير تلك التفاصيل؟ لماذا توقّف مفعولها بعد أسبوع فقط؟ لماذا؟ لماذا؟ وأتاني اليقين بتفكير لا يخلو من المنطق، حدث ذلك مع موت الأوراق، حين دبّ إليها التشقّق واليباس، وهذا يعني أن التجديد وارد، وقد يلزمه الاستمرار أسبوعاً وراء أسبوع. لم لا؟ سأفعل هذا ما دامت بي حياة، وأتى الصباح حاملاً التدفّق والنشاط، لأسرع إلى (فيللا) شدياق، وهناك أنتني أهم الأفكار. لم لا أقتطع غصناً كاملاً يكفي لأسابيع، كانت المحاولة صعبة وكأن الغصن يتشبّث بالجذع وبالأرض، غير أنني عدت مكلّلة بالنجاح، لأعود للّعبة من جديد.

قطفت أربع أوراق. عدت للكتاب والصفحة، ورحت أنقل الأرقام واحداً واحدا، أضع إصبعاً فوق كل حرف وفوق كل عدد، وأعيد القراءة والتركيز والكتابة، ثم آمر تلك الأسماء بعقد كل غرائز هذا الخائن عن الحرام. أما ما حدث فكان مدهشاً حقاً، فقد عاد ظافر على غير موعده ملهوفاً متشوّقاً. حضن طفليه وزوجته. عبّر عن شعوره كمسافر يعود بعد غياب. إنه يحبّهم كثيراً. لن يغادرهم بعد الآن. كم كان جميلاً ورائعاً؟ أصبح الدواء أمامي وبين يدي. غمرتني سعادة فجائية. فكّرت بغصن الدفلى، كان علي الاهتمام به ورعايته، وضعته في إناء مليء بالماء، ورحت أراقبه في الجيئة والذهاب.

ذلك المساء، وكنت أقلّب إبرة المذياع، تسلّل إلى سمعي بأن (السعي لجلب الراحة يلزمه المواجهة) فكّرت: (ربما يلزمه وضع خطط جديرة بالاهتمام)، ثم غفوت.

***

www.alkottob.com

www.alkottob.com

www.alkottob.com

اتّسعت ابتسامة ابنتي، وعمّ السلام في البيت. تلك أيام لا تنسى. أراقب الحركة والنأمة، وهذه المملكة التي نصبّت عليها ابنتي كسيّدة أولى، لتطوي صفحة الطلاق إلى غير رجعة، وتمضي الأيام على أجمل صورة، لفت ظافر خلالها انتباه الجميع، أما أمه التي لم يعجبها ما آل إليه فقد شكّت بالأسباب، فتروح معه في حوارات طويلة، وتراقب تصرّفاته التي تسربلت بالتهذيب. كان يستيقظ منشرح الصدر. يداعب ابنيه. يشارك زوجته في المسؤوليات. يحضر الإفطار. يطعم الصغيرين. يعود. يرتّب سريره. تكون ابنتي في ذهول. إنه يهتم بثيابه. يطويها. يرتّبها. كل شيء في مكانه. لم يعد يرمي بأشيائه كيفما اتّفق، وحين يضطّر لخروج ما يطالب أسرته بمرافقته، أو يلمح إلى غياب قصير يعود على إثره متشوّقاً"، وكان مسروراً بطريقة ملفتة كما كانت ابنتي، خاصة حين فكّر للمرة الأولى بوجوب البحث عن عمل، فالمسؤوليات كثيرة وكبيرة، ويترتّب عليه الاهتمام براحة زوجته، ومستقبل أبنيه.

لفت انتباه العاملة ما يحدث في البيت، فعلّقت منشرحة الصدر على الزواج المثالي، الذي لم تعتقد به في يوم، ثم اكفهرّ وجهها فجأة، وراحت تتحدّث عن رغبة والدها بتزويجها، من رجل كبير في السن ويصرّ على أنه نعم الزوج، فقد أثبت ذلك في زيجاته السابقة، جميع أبنائه متزوّجون. إنه يبحث عن زوجة صغيرة، تحبه وترعاه، أما رأي أبيها فينصحها بالإنجاب منه، فثروته لا تقدّر، فربما ترث ما لا يصدّق. رفضت هي بقوة فضربها ضرباً مبرحاً. هدّدته بالهرب أو الانتحار فضربها أكثر. لكنها ستهرب حقيقة إن حاول الضغط عليها وتزويجها من هذا الكهل. ستختفي عن عيون الجميع. ستغادر كل شيء. هنا وهناك والعمل، ولن تتعلم الخياطة أيضاً، ولن تدع والدها يعرف أين هي أبداً.

ضحكت في وقت كنت متأثّرة ومتعاطفة معها. وعدتها بتقديم المساعدة حين الطلب. كنت صادقة معها. فهي محور الحركة في هذا البيت. تحب الصغيرين. تعيننا في العمل. تهتم بابنتي، ورحت أقدم لها النصيحة، فمصير كل فتاة هو الزواج، وسيحصل ذلك في يوم ما، فإن أتى ما هو مناسب لها فترتبط؟ وإن لم يأت لا بأس أيضاً؟ خاصة وقد تغيّر الآن كل شيء، كان الزواج ضرورة للفتاة،

www.alkottob.com

ويفضّل على عنوسة طويلة، أصبحت اليوم تحمي نفسها من هموم الحياة وضائقاتها، فالعمل يحل مشاكلها ويساويها بالرجل. العمل هو المردود الذي يغني عن العوز والوحدة، والأمثال كثيرة ومتعدّدة.

لم تبارح ابنتي تفكيري ذلك النهار، وهي التي وقعت في مصيدة الزواج، ولا تستطيع الوقوف في وجه المجهول القادم، فالاختيار الصحيح هو الحل، هو الاطمئنان، لو كانت في مكانها اللائق لما مرّت بتلك الظروف، ما الذي كان سيحصل لو لم يحدث ما حدث؟ ربما تخرّجت الآن، ربما عملت. كانت تحلم بالانتساب إلى كلية العلوم، وكنت أحلم معها أيضاً. أحلم أن يأتي ما يناسب حياتها لتكمل المشوار، بثقة وكرامة، وأعتز بها وبزوجها، ولا اضطر للتفكير بتميم وغير تميم، أو اللجوء إلى الخرافة والشعوذة والخزعبلات، ولما ركضت في الصباح أو العصر إلى (فيللا) شدياق، وجلست كاللص أكتب التعاويذ وأرسم الطلاسم، وأتعرّف على الأسماء أو آمر الخدّام، وألحق الوهم والمجهول، وحين ألتقي في مطلع كل شهر مع نسوة الجمعية. أكون في أفضل حالاتي النفسية، وقد ارتديت آخر ثوب خطته للمناسبة، فأتحدّث وأطرح الأفكار، أو أشارك في الأحاديث، وأستمع إلى المدح، فأنا في نظرهن أهم مصمّمة لأزياء العصر، من يصدّق أنني هي تلك المرأة المهووسة بجلب السعادة لابنتها، والتي استنجدت بما لا يصدّقه العقل، قطفت الدفلى وقرأت الطلاسم وكتبتها، وأمرت الخدّام أن يستجيبوا، وأن. وأن. وأن.

خرجت إلى الشرفة أستنشق نسمة آتية من فضاء البحر. كانت الشمس في منتصف السماء. الجو ربيعي. الجوري تفتّح عن براعم وردية حمراء، والفتنة تستعد لعطاءاتها الموعودة، مررت على النبتات الموزّعة. توقّفت عند غصن الدفلى، فوجئت بالحياة تدبّ في أسفل جذعه، وقد ظهرت له جذور قوية ومتشعبّة. ها هو يثبت وجوده. يعلن استمراره، ويتحتّم عليّ منحه الخصوصية والمكان، ليستنشق الهواء بحريّة، ويشرب الماء بعذوبة، فهو الأمل والاستمرار.

انهمكت بإحضار التراب والسماد. اخترت الوعاء، ولم يمض النهار حتى بدا الغصن شجيرة صغيرة، وقد ظهر لها فرع صغير وبضع وريقات نضرة لا تلفت الانتباه، فالشرفة تستوعب المزيد إلى جانب الياسمين وغيره. هكذا أصبحت شجيرة الدفلى متمّمة للاخضرار الموزّع بعناية، وانحصر دورها في جلب الاستمتاع للناظر إليها.

www.alkottob.com

***

www.alkottob.com

سارت جميع أمور البيت على أكمل وجه. انطلقت بعملي بشكل أوسع. أصبح لدي الوقت والهدوء والطمأنينة. تهافتت سيدات المجتمع لصنع أثوابهن الجميلة. أصبح إنتاجي أفضل وأكثر إتقاناً، فقلبي يضجّ بالفرح، وعيناي مرتاحتان، وحياتي هادئة، فنمت علاقة جميلة مع حفيديّ، خاصة رافي الذي يتسلل إلى غرفتي في الصباح الباكر، فيهمس بأنه قد حان موعد تحية العلم في التلفاز. أصطنع النوم أولاً. يشدّني من ذراعي. اصطنع المثول لأوامره. أنهض ونهرع معاً، ليقف بثقة رافعاً كفه إلى صدغه، مردّداً مفردات النشيد بتقطّع ولثغة محببة، ونتحول بعد ذلك إلى الغناء. تصدح فيروز بأغانيها المحبّبة. نغني معها ويدهش من حفظي الكلمات، وأتعمّد السرعة والأسبقية. ينقّل نظراته بيني وبينها. كانت له حافظة مدهشة وأذن موسيقية، فأستمع إليه بإعجاب إلى أن يلحق بنا أخوه الذي يقف بحياء، ثم يقترب فجأة نحوي. يلاصق ذراعي. أحضنه. يحاول رافي تجاهلنا وهو يختلس النظر إلى كلينا، فأشعر بأنها أجمل الأيام، وأكثر ما أستطيع الحلم به. هذا الاستقرار من حولي. كان الحب في نفسي يكبر ويطفو إلى ما حولي. إلى حياتي وأموري، أما أخبار ابني فكانت تأتيني تباعاً. انحصر همّه تلك الفترة بزيادة المال المخصّص له، المتطلّبات كثيرة والمصروف لا ينتهي، وهو في بلد غريب كما يقول، أما بعض زملائه فقد أتوا من بلاد الذهب. يصرفون بلا حساب ويصاب بالخجل حين يلتقي بهم، إذ لا يستطيع مجاراتهم، لذا يبتعد عنهم. كانت رسائله مليئة بالشكوى كهواتفه، وكان علي بالمقابل زيادة أوقات العمل، أو رفع الأجور. في كل الأحوال سارت الأمور على ما يرام، خاصة وأن العاملة تخطّت كثيراً من مراحل العمل، وظهرت على أعمالها بداية نضج. خمّنت تلك الفترة أن مشكلتها مع الزواج قد انتهت، واكتشفت لاحقاً أن الأمر قد تفاقم، وقد تضطر لأخذ موقف يحدّد لها الأبعاد بكاملها.

لمّح ظافر إلى أمرين هامين، أولهما اهتمامه بالعودة إلى الدراسة لنيل الثانوية، والمتابعة في الجامعة، وحلم يراوده بالانتساب لكلية الزراعة، كي يحقّق حلم أبيه، أما رغبته الثانية فكانت شراء بيت يسكنه مع أسرته الصغيرة، بمساندة

www.alkottob.com

أمه وما تركه له أبوه من إرث. كان قد حدّد موعد اللقاء مع السمسار. بدت البهجة على وجوه الجميع. ابنتي وابنيها. كانت الفرحة تعم البيت، ولا أدري هل كنت مبتهجة كما هم مبتهجون؟ لا بد أن يكون ذلك، فأقصى أمانيَّ هي استقرار ابنتي وسعادتها. لكن! لا أدري لماذا صدمت؟ هل لأنني تعوّدت وجودهم قربي؟ وهل يعني هذا ابتعاداً حقيقياً؟ حاولت إبعاد جميع الأجوبة، وفكّرت بشيء واحد، وهو كما قال ظافر، فقد يستدعي السكن وقتاً يتراوح بين عام أو أكثر. انتظرت عودتهم على أحر من الجمر، لأستمع ذلك المساء إلى حوارات طويلة حول مخطّطات الغرف، والوقت المخصّص لإكسائه. كنت أبحث عمّا يمدّد إقامتهم معي. فكّرت أيضاً بالمفروشات، والأثاث، وما يلزم لبيت كامل، ولسوف أتدخّل في الوقت المناسب. يجب أن تعيش ابنتي في بيت لا ينقصه شيء، غير أنني بقيت في ذهول إلى اليوم الثاني.

ما الذي سأفعله الآن؟ أو بعد الآن؟ هل ستنقلب حياتي؟ شعرت بغصّة، وأنا التي تعوّدت عليهم. خاصة الصغيرين، ورافي الذي يعتبرني صديقته. يمارس ذلك حين نتحادث، فيرفع الكلفة بيننا، ويعجب بنفسه وبتحقيق ذاته. نتحاور. نتناقش، ثم نغني ونلعب، وفي أوقات الفراغ يطالبني بسرد الحكايات. يغضب حين يكتشف خطأ في مسيرة الأشخاص، ويتّهمني بالكذب. يشتد التمرّد والحوار، إلى أن نصل إلى قناعة ما، فيبدو راضياً على مضض.

إذن ستتغير حياتي، وأرى نفسي وحيدة مع آلة الخياطة، ومع هذا الكم من الأقمشة، سأشتاق لهم، وتهطل دمعتي، ستأخذ أغنياتي طابعاً جديداً له لون الهجر والحرمان، والبعد والاغتراب. أعرف أن استقلالهم هو حق لهم. أن ينفردوا ببيت. يعيشون معاً. يحلمون معاً. ألم يكن هذا حلمي؟ يجب التوقّف عن التفكير. يجب أن ألملم دمعتي، وأسحب نفسي من أغنية قديمة كنت قد تمرّست عليها، وأمني النفس بملء عيني من أشيائهم ريثما يذهبون. سيبقون قريبين مني، ويكون باستطاعتي لقاؤهم وقتما أشاء، سأفاجئهم كل صباح، وكل ظهر، وكل مساء، أو يفاجئونني، سيكون لهم بيتان، وستبقى غرفتهم في انتظار، ولا بد من فترات يقضونها معي، كالأعياد أو أيام العطل، فيبقون ولا يرحلون.

تعوّدت أخيراً على فكرة مغادرتهم لي، أصبحت أشاركهم في مخطّطاتهم، وأبدي الرأي فيما يخص أحلامهم القادمة، وأقدم النصيحة تلو الأخرى، وأضع تجربتي وخبرتي في خدمة متطلّباتهم، فيمتعض ظافر أحياناً، لكنني لا أعيره

www.alkottob.com

اهتماماً، فهذا حقي، وابنتي ستعيش في هذا البيت. ويتحتّم أن يكون على أفضل صورة، وكان باستطاعتي بعد أحاديثهم الطويلة تكوين فكرة عن مساحة البيت وأبعاده، أين تقع غرف النوم؟ غرفة رافي وأخيه، أين سيلعبان؟ أين سيأكلان؟ وكيف سيمضيان الوقت؟

***

www.alkottob.com

www.alkottob.com

www.alkottob.com

لم تغب عن ذاكرتي شجرة الدفلى التي قامت باللازم. أصبح بيننا علاقة تفاهم وود، فأحسب الأيام ساعة ساعة. يجب عدم النسيان، قد تؤثّر الدقيقة والثانية، لذا وفي اليوم السابع تبدل الأوراق الأربع بأخرى. كان عملاً ممتعاً، يفعل فعله بقوة وصمت. يقلب ظافر رأساً على عقب. يصبح رجلاً آخر. مختلفاً. يعيده إلى الحق والصواب. بعيداً عن الخطأ والخطيئة. يصبح أجمل وأنظف وأنقى. يصالحه مع نفسه ومع الآخرين. يصبح سويّاً. نافعاً. محباً ومحبوباً. كان هذا أجمل ما تقوم به وريقات الدفلى من فعل.

جلست على كرسي في الشرفة. أراقب كل نبتة على حدة، ثم أقارنها بالأخرى. ترى؟! هل للفتنة من نفع ولا ندركه؟ أو هل للياسمين أو الجوري من فعل أيضاً؟ تذكّرت بـ (الدريديريين). فهل كانوا على حق؟ تنفّست بعمق وكنت أفكر بشجيرة الدفلى وفعلها المجهول، والذي توصّلت إليه عن طريق المصادفة، حين طرأت على ذهني فكرة. شعرت بذهني يعمل بأسلوب مدهش، لا يخطر على بال البسطاء. فكرة يلزمها الذكاء والحنكة والتطبيق. أعجبت بنفسي وبهذا الانبثاق الذي ولد فجأة ودون تخطيط. خفق قلبي وأنا أفكر بتطبيق ما جال في ذهني. حسبت الأيام المتبقية. أيام وأنفّذ الفكرة التي ستفعل فعلاً مجدياً، يدوم إلى آخر العمر.

مرّ يومان حسبتهما دهراً. كنت أحسب حساب جميع من في البيت. العاملة وابنتي وزوجها وابنيها، خاصة أمام رافي المغرم بتقليدي، فقد استعمل المقص ذات مرة وقطّع أحد الأثواب متقمّصاً شخصيتي، وهو يردّد بأنه (التاتا)، فيتحتّم إذن التكتّم والسرية، وكانت الفكرة أن أكتب الطلسم على الأوراق الأربع بينما هي لا تزال على غصنها. ذلك سيجعل الفعل أقوى وأثبت، وربما –كما فكّرت ذلك اليوم– أطول زمناً، ثم أقطفها لمتابعة الخطة السابقة.

أذكر كيف تأنّيت بنقل الحروف والكلمات بدقة، وحاولت كالعادة مراعاة الصواب وعدم الخطأ في مواقع الكلمات أو أماكن الأرقام، ولا أدري لم كنت أخاف من خطأ ما في ذلك؟ ولا أخاف من تغيير في الطريقة التي يجب أن تكتب

www.alkottob.com

بها؟ كما جاء في كتاب (الرحمة في الطب والحكمة)، فجئت بأسلوب جديد موقنة من أن فعله سيكون أنجع، وكانت الكتابة بينما الوريقات ما زالت –كما يقولون– على أمها.

في تلك الفترة. ربما بعد دقائق. لا أدري تماماً. الآن أحسب ذلك، فعلى ما أعتقد تلك الفترة لاح لي ذلك الرجل وهو يمرّ في نهاية الممشى المؤدّي للصالون، مرتدياً سترة من لون بني فاتح، برأس صغير بعض الشيء وبنطال داكن، ربما كان بنّياً داكناً. يومذاك أرجعت ذلك لخداع البصر أو ألاعيبه. لم يخطر لي غير ذلك، ونسيته للحال، كأنني لم أر شيئاً. في تلك الفترة أيضاً حدثت أمور غريبة بعض الشيء، لم أقف عندها أيضاً، ولم أستطع تفسيرها، وربما أرجعتها إلى ظواهر في الحياة وفي الطبيعة لا تستحق الوقوف عندها طويلاً، إذ كنت أنساها للحال.

في تلك الفترة أيضاً وكنت أجلس في مكاني المعتاد، وراء آلة الخياطة. رفعت رأسي فجأة. شاهدت الرجل، وكدت أطلق عليه صفة الطائر، لأنه يعبر بسرعة وكأنه لا يمشي. حدّقت قليلاً. كان قد اختفى بسرعة البصر، ثم عدت لعملي وكأن شيئاً لم يكن.

لم أتحدّث أمام أحد عمّا تراءى لي، لأسباب تتعلق ببساطة الحدث، أو هذا ما هيئ لي. إذ كان اعتقادي يزيح عن ذهني كل الشكوك، وكل ما هو مخيف، فالاحتمال الأول ما زال موجوداً، خداع البصر، أو أن المرآة المتصدّرة واجهة الخزانة عكست شيئاً، يشبه الرجل الذي لاح في المرة الأولى، وكما حدث ذلك اليوم لم أنشغل بما رأيت، ربما لأنني في المرتين كنت أجلس في المكان نفسه، وأرفع رأسي بالطريقة نفسها، وأعمل العمل نفسه، أو لماذا لم أر رجلاً مختلفاً عنه في الشكل والهيئة؟ أو يرتدي لباساً مختلف اللون؟ أو لماذا لا يكون بطول مختلف؟ أو برأس مختلف؟ في كل الأحوال لم أفكر كثيراً، فقد أخذني العمل، وربما مشيت حيث عبر الرجل بعد مروره بدقائق معدودة، دون التفكير به أو بالأسباب التي جعلت ذلك المشهد يتراءى لعيني أكثر من مرة.

قبل أن أغفو سمعت المذيع يختم النشرة الإخبارية بحديث حول ((الاستيطان ودوره الذي كان غائباً خلال فترات ماضية)) أدرت الإبرة أبحث عن أغنية عذبة، ورحت أفكر بمسؤولياتي الصباحية. كان موعد الجمعية الذي سيكون في بيتي يقترب، وكان علي بعض الالتزامات المهنية. نهضت أربط عقرب الساعة

www.alkottob.com

للاستيقاظ الباكر، ثم عدت للنوم باطمئنان شديد.

***

www.alkottob.com

أتاني صوت ابنتي وهي تلحق رافي، وكان يتجه نحوي مهرولاً قالت:

-لا يريد الاغتسال.

قاطعها بدلع قائلاً:

-أريد.. لكن مع جدّتي.

قلت بجدّية:

-أنا مشغولة.

شدّني من ذراعي مصرّاً وهو يقول:

-هيا.. قومي.. أريد السباحة في الماء.

قبلته ونهضت. ملأت المغطس ماء دافئاً وأنا أستمع إلى تعليقاته العذبة، فهو سيسبح في البحر، ويحب الماء الحلو. لا يحب المالح. لن يتعب من السباحة. أمه لا تدعه يلعب، هو يحب اللعب. هو يحب (التاتا). صفق بيديه فرحاً. كنت أحمله وأسقطه شيئاً فشيئاً في الماء، وأفكر بأن العمل يلاحقني، وعليه الإسراع. حين تناهى إلى سمعي خطوات في الممشى، ما بين الحمام وغرف النوم. كانت خطوات رجل يرتدي حذاء قاسياً. يقطع المكان جيئة وذهاباً. أصغيت السمع ثم عدت لحث رافي على النهوض.

أصاب الآن بالدهشة، لماذا لم أقف بعض الوقت للتفكير بما يحدث؟ وكيف أمارس لعبة الدفلى وأوقن بمفعولها، ولا يمر بذهني أن ما يحدث حولي غريب الوقوع؟ هل لأنني قضيت عمراً لم أتعرّض خلاله لأمر مشابه؟ أم لأن لم تعترض حياتي تجربة لها علاقة بالغيبيات؟ أم لأن طفولتي المليئة بالخيال وأخبار الجن والأشباح، جعلتني أتخطّى مراحل الخوف التي استهلكتها بأجمعها ذات يوم؟ تلك الطفولة المليئة بالجرأة، حيث كنا نصطاف، فنتحرّك هناك بعفوية وبلا توقيت. كنا نخرج ليلاً إلى الهواء الطلق، فنلعب تحت السماء المكتظّة بالنجوم، وحين نرى كتلة ضخمة تشبه الضوء المشوب بالحمرة، وهي تلتّف حول نفسها وتسقط فوق

www.alkottob.com

مكان ما. نهرع للاستكشاف، وفوق شفاهنا قصص الأنبياء والقداسة، فنرى الأيام جميلة. نستمد منها الثقة، ونتلمّس في نفوسنا جمال الكون والطبيعة، ونحمل مقدرة على التصوّر والتفكير، فكل شيء ممكن وعادي في الحياة.

كنت منهمكة بقطعة قماش حين تذكّرت خطوات الرجل القاسية. خطر لي سؤال ابنتي حول ذلك قلت:

-هل أتى زوجك حين اغتسال رافي؟

-لا.

-هل أتى أحد آخر؟

-لا.. لماذا؟

-لا لشيء.. سؤال لا غير.

هذا ما حدث، وكأنّ شيئاً لم يكن. كأنني لم أر ولم أسمع، ربما اعتقدت بقدوم الصوت من مكان آخر. لم لا؟ قد يكون هذا ما فكّرت به آنذاك، فلقد نسيت كل شيء. ما رأيت قبلاً وما سمعته الآن. كأن أمراً لا علاقة له بهذا المكان، أو كأنني أرى شريطاً على التلفاز. وربما لأنني أوقن بظواهر في الحياة لها علاقة بالطبيعة أو الفلك والنجوم، أمور تحدث لا علاقة لنا بها. غير أنها تحدث لأسباب لا يدركها العقل، وقد لا يدركها العلم. كما تسقط نجمة أو يحدث كسوف، أو نتعثّر، أو ينكسر إناء أو ساق. أمور تستحق التوقّف منّا نحن البسطاء، لكنها لا تستحق التفكير الطويل، فالاهتمام بأمور كهذه لها أصحابها المختصّون. لها علماؤها الذين لا يتوقّفون عن البحث والدراسة، فما يحدث معي قد يحدث أيضاً مع غيري، فهل ستكون قضيته وشغله؟ وإن حدث هذا كيف ستكون ردّة فعل المستمع إليه؟ فإن تساءلت أمام أحد عن معنى ظهور رجل واختفائه؟ أو أصوات أقدام تعبر أروقة البيت؟ هل سينظر إليّ بعين الريبة؟ بالنسبة لي لم يكن هذا سبباً، قد أجفل من صوت أو صورة، قد يحدث هذا لثوان، ألتفت. أنتبه. أنظر. أراقب، وأعود لمتابعة أموري من جديد، وكأن شيئاً لم يكن، أو كما حدث ذلك اليوم، وكان موعد الجمعية، قمنا أنا والعاملة نلملم ما خلّفته الخياطة من قصاصات وخيوط أو أوراق، ونستعد لاستقبال الضيوف. تنقّلت بين الأثاث أراقب عملية التنظيف. أرتب. أضع اللمسات، ثم ألقيت نظرة رضا على كل شيء، واتّجهت وأنا أدير ظهري إلى الصالون لأعبر إلى غرفة عملي. توقّفت مذهولة. فشيء قوي يصدر صوت ارتطام على المنضدة. استدرت باحثة عن سبب

www.alkottob.com

دهشتي. وجدت الصورة التي ترتكز على مسند خلفي قد وقعت. غير أنها وقعت بطريقة مختلفة عمّا يجب، فبدل أن تسقط إلى الوراء باتجاه المسند، وهذا هو الطبيعي، فقد سقطت إلى الأمام. أذكر بأنني دهشت وأنا أمسك الصورة بين يدي. كانت بالنسبة لي صورة مقدّسة. فكّرت بالطريقة الغريبة التي سقطت بها. كان من المستحيل أن يحدث ذلك، إن لم تفعله يد ما. كلّفني التفكير بضع ثوان، وانشغلت ثانية بالاستعداد لاستقبال الضيوف.

كنت قوية. كانت أعماقي محصّنة ضد الخوف والتهيؤات. ضد اللا معقول. ضد الخرافة. وهذا ما جعلني أستقبل زائراتي ببساطة امرأة تعيش الحياة برفاهية واطمئنان. لم أكن أصطنع مشاعر السعادة، فأنا أعيشها مع ابنتي وابنيها. اختلت أكثر من مرة وأنا أنادي ابنتي للتعرف بسيدات المجتمع، أو لتقديم المساعدة لي كما تفعل العاملة النشيطة، ورحت أتحدّث عن حياتها. عن زوجها الذي يحبها. عن البيت الذي أهداه لها، ولم أنس الحديث عن مشاعر الأسى التي ستحتلّني، حين سيفارقونني ذات يوم، فقد تعوّدت على وجودهم.

مرّت الساعات بسرعة، تخلّلتها وجبات من طعام وأصناف حلويات، وأحاديث متشعبّة حول الأبناء وهمومهم. سئلت عن ابني ودراسته. عن آخر تصاميمي. عن أهم الألوان المقترحة للعام القادم، وكنت ألاحظ في عيون أولئك النسوة نظرات الإعجاب، إلى أن مضت الجلسة على أكمل وجه، وكانت لحظات شيّقة بقيت في ذاكرتي طويلاً.

***

www.alkottob.com

www.alkottob.com

www.alkottob.com

ذكّرتني العاملة بأن اليوم مخصص لتسليم الأثواب التي جهزت لأصحابها. كنت قد نسيت ذلك في زحمة أعمال البيت، ورحت أنادي ابنتي المنشغلة بإطعام ابنيها، وأملي عليها طريقة طبخ الخضراوات باللحم، كي أتفرّغ للعمل لوضع اللمسات الأخيرة. كانت العاملة منهمكة معي، ورحت أراقب حركتها بإمعان. هذه الفتاة موهوبة بطريقة لافتة. فكّرت بأنها لا بد أن يكون لها شأن في يوم ما، ولم أبخل عليها بنصيحتي وتجربتي الطويلة. كنت أعتقد بأن الخير والعطاء لا يذهبان سدى، فلا بد أن يرتّدا على الفاعل في يوم. كنت أفكّر بابنتي القريبة مني، وبابني الذي يعيش الغربة طوال سنوات، وربما استعان بمن يمنّ عليه بالحب والحنان.

كانت المرأة تقلب الثوب بين يديها من كل جوانبه ذلك الصباح، وتعلّق على طريقتي في الخياطة. النظافة. الترتيب. من يرى عملاً من أعمالي يقسم أن لا يد لمسته، بل أكبر مصانع التصميم لن تجهزه كما هو عليه، وتساءلت هل تخرّجت من معهد أو مدرسة؟ أو هل تمرّست في معمل؟ تذكّرت نباهة العاملة التي ربما تفوقني مهارة في يوم قادم، غير أنني أجبت عن تلك التساؤلات، فأنا قد مارست المهنة منذ الصغر، عندما حكت للعبتي القماشية المفضّلة عشرات الأثواب والقمصان.

غادرت المكان لأحضر كيساً لوضع الثوب فيه، وكنت أعبر بين طاولة الطعام والنافذة المطلّة على منور البناية، حين سمعت ورائي شيئاً يسقط، هيئ لي أن وزنه يعادل عشرات الكيلوغرامات. شبّهته بصندوق ضخم مليء بالكتب. التفتّ إلى موقع الصوت بدهشة. لم أر شيئاً.

بقيت في مكاني وأنا أمدّ بصري فيما حولي، هنا أو هناك، فربما أرى ما سبّبه الصوت. كان من المستحيل التصديق بأن لا شيء حولي سيدلّني على الصندوق الذي سقط ورائي. درت في مكاني وعدت إلى غرفة العمل، لا أحمل صورة في ذهني عمّا حدث قبل ثوان. كانت السيدة ما زالت تقلب الثوب الجميل بيديها. ناولتني الأجر ورحلت. كانت العاملة تعلّق على بخلها. إذ لم تفكّر بمنحها

www.alkottob.com

هديّتها أو كما تسميه (الحلوان).

نادتني ابنتي وكانت منهمكة في المطبخ، وكأنها تذكّرت شيئاً راحت تضحك وهي تحاول الحديث، فنهرتها. ما الذي يحدث؟ تكلّمي! فتكلّمت، فهي خلال الليل كانت تشعر وكأن أحداً ما يتحرك في الغرفة، وحين يجلس يكون ذلك للقراءة، كانت تستمع إلى صوت تقليب الصفحات ورقة ورقة، وكأن يداً حقيقية تفعل ذلك. سألتها إن كانت متأكدة من ذلك؟ عادت للضحك. عرفت أن ابنتي تتمتّع بالقوة وعدت إلى غرفتي.

لماذا أصمت ولا أبحث في الأسباب؟ لماذا لا ينتابني الخوف؟ هل لأن لا علاج لهذه الظواهر إن وجدت حقيقة؟ كان التجاهل والنسيان حليفيّ وصديقيّ، والنهج الذي اتّبعه اللا شعور في عقلي الباطن، وأتساءل الآن: هل هو تناقض أن أؤمن بقوى غيبية تغيّر مجرى حياة كحياة ظافر؟ أو مسيرة شخص ما بطريقة جذرية وبأبسط الطرق؟ ويكون رصيدها أربع أوراق من أشجار الدفلى، فيكتب عليها أرقام وإشارات، ويطلب أو يؤمر، فلا تمرّ الدقائق حتى يلبّى النداء؟ هل هو تناقض أن أوقن بهذا ولا أوقن بأن ما يحدث حولي ليس أمراً عادياً؟ أمر لا أستطيع تفسيره. ربما لأن ما يتعلّق بالأولى له علاقة بالعلم والحساب. مثلاً. لو كتبت على خمس أوراق بدل الأربع هل ستختلف الأمور؟ أو لم حدث خطأ بين رقم 12 وكتب 14 ألا يكون الأمر مخيفاً؟ ربما لا، وربما نعم، وهذه النعم هي التي تدفعني للدقة والأمانة في نقل الوصفة، وهذا أيضاً هو السبب المباشر في أنني لم أقف أمام ما يحدث خارج تلك اللعبة، فالوصفة تقول أمراً محدّداً، وما يحدث لم يطلب مطلقاً، ولكل حادث سبب، وليس لما يحدث من أسباب توجب وقوعها، ولهذا لن أوقع نفسي في تفكير غير مجد، هذا حقي! حقي ألاّ أفكر بالحاضر، ألاّ أهتمّ به. لكن! أليس من حقي أيضاً التفكير بزمن سبق تلك الفترة؟ وهل كانت تحدث أمور شبيهة في ذلك الزمن السابق؟ لا أذكر شيئاً من هذا. وأعتقد أنها تحدث لأول مرة. أم أن أموراً أخرى كانت تشغلني آنذاك؟ أو ما الذي كان يبعدني عن التفكير بظواهر تحيط بي؟ ظواهر تستحق الاهتمام، وربما الخوف والهروب. لماذا تمر الأشياء وكأنها لم تكن؟ أو كأنها بعيدة كل البعد؟ أو كأن ما يحدث هو الصدى الآتي من مكان آخر. بيت مجاور. سطح أو شارع، وكيف أعبر فوق خطوات سبقني إليها رجل يظهر ويختفي؟ عشرات المرّات أروح وأجيئ. دون تفكير. دون تصوّر. دون استعادة لصورة أو صوت. أو. أو. خاصة

www.alkottob.com

وأنني لست الوحيدة في البيت التي أحسّت وسمعت. فابنتي أيضاً استمعت خلال الليل إلى صفحات كتاب تقلب أوراقه ورقة ورقة. ربما كانت المصادفة هي التي تخصّني بتلك الأمور التي كانت ستحدث حتماً إن كنت موجودة أم لا. أفكّر الآن هل كنت أشك بفعل أوراق الدفلى، ذلك الفعل الذي قلب الصورة فوق الطاولة، وأصدر تلك الأصوات، وفضّلت التجاهل واختيار ما هو في مصلحة ابنتي، ورحت أغض الطرف عن الأعراض الجانبية، كما يحدث إثر تناول بعض الأدوية؟ لا إني متأكّدة أن ذلك لم يمر في ذهني أبداً، ولست أعلم في حال الشك بذلك كيف كنت سأتصرّف؟ ربما كنت أنهيت تلك المهزلة ببساطة وكأن شيئاً لم يكن، وليحدث بعدها ما يحدث، وربما كنت تجاهلت تلك الأمور لاعتقادي ببساطتها، ما دامت لا تتعدى حدود الحركة، ولا تجلب الأذى كما كنت متأكدة منه آنذاك.

***

www.alkottob.com

www.alkottob.com

www.alkottob.com

ليس هناك أجمل من صور الطفولة، وهي تهجم على الذاكرة بعذوبة. ذلك الرصيد الذي خزّن بالجرأة، فتخطّى ما كان وهو يعبر فوق الصعب، ليترك أحلاماً غنية بالتخيّل والتصوّر والأحلام. ذخيرتي ملأى بالأحداث التي تفوق التصوّرات، ملأى بقصص فيها السندباد وألف ليلة وليلة، وحكايات كليلة ودمنة، فيها قصص الجن والعفاريت والأشباح. كان خيالي يجمح ويحلّق مع طيور (حسن الصايغ) التي تأتي مرّة في الشهر، فتخلع ريشها وتستحم، فوقع في حب الكبيرة (منار السنا)، وخطفها -كما علّمته الجنيّة التي منحته الأخوّة- لتصبح منار السنا زوجته، إلى أن اكتشفت ذات يوم ثوبها الريش وقررت الهرب. كان لديها ابنان شدّتهما إلى وسطها، وارتدت الثوب وطارت إلى أهلها، أما هو فأتته وصيتها، فإن أرادها فليلحق بها إلى جزر الواق الواق عند عشيرتها، ولاقى ما لاقاه كي يعيدها.

كانت القصص تأتيني دون تخطيط. عبر القراءة أحياناً، وبطرق عفوية أحياناً أخرى، كنت أقضي في القرية أجمل الأيام، كان كل شيء رائعاً يضفي على ذلك الجمال السحر الأخّاذ، فعند مدخل القرية نبع رقراق. نروح إليه في كل وقت، هنالك نزهاتنا المميّزة. تكون النساء منهمكات بملئ الجرار بين اللعب والضحك. أذكر كم جلست على ضفاف الماء المنهمر، فوق الحصى المتعدّدة الأشكال والألوان، فيحلو لي مراقبة الوقع وصوت الخرير، وأشكال الحصى الموحية بالنظافة والتألق، أكون في ترقّب وتحفّز للاستماع إلى الأحاديث الغريبة التي تستعيدها النساء جيلاً بعد جيل، ومصادرة كل فكرة جديدة علي، أو ما يروى ويؤكّد عليه شهود عيان، ما زالوا يعيشون في قرية تتمتّع بجمال الطبيعة وعذوبتها.

لم تترك في نفسي تلك القصص التي كانت ترد ببساطة الأثر السيء، ربما لاقتران الاستماع إليها ببساطة السرد، وإرجاعه إلى عوامل طبيعية عادية، تحدث في عالم له أكثر من وجه وأكثر من يقين، فبقدر ما شغلتني تلك الأمور آنذاك، بقدر ما أضفت عليّ من التوازن والموضوعية، وربما لأسلوب الراوي الذي ينهج العفوية دون تهويل، ما يبعد الخوف عن المتلقي ويقرّبه من الاستغراب الجميل،

www.alkottob.com

أو الفكاهة المحبّبة التي لها الوقع الطيّب والعادي. فإنهم يتحدّثون عن أشخاص لا مرئيين يظهرون أحياناً، يفكّرون ويخطّطون ويحتفلون ويتقاسمون الأعمال، ويوزّعون كيفية جلب المستحضرات، والمواد التي تصنع منها الأطعمة، والأواني اللازمة، ويصبح الاستماع أمراً عادياً، بل جذّاباً ومشوّقاً. حينذاك نعرف أن الحفل سيقام، وقد حدّد أوانه وظروفه، إذ أمليت الواجبات، هذا يحضر الطناجر من بيت فلان، والملاعق من بيت آخر، وذاك يهتم بكذا، وذاك بكذا. أما الراوي فيقسم أن الملاعق غابت عن بيت فلان عدّة ساعات، والطناجر عادت في آخر الليل، ومن بيت فلان اختفت كؤوس الماء، ثم عادت بقدرة قادر، وكان خيالي المرتبك وقلبي المتقافز يعملان بعشق لتلك الأحاديث، فأحلم بالمرور قرب الوادي الذي كان نهراً، وتحوّل مع الأيام إلى ممر لتلك الكائنات، حيث يقيمون في مكان ما احتفالاتهم ومآدبهم، وأنصت إلى أحاديثهم وأصبح الراوية لمرة واحدة، حيث سأترك خيالي عندها يعمل، ويضيف ما يستطيع من صور وأفكار. غير أن ما كان يزيد اهتمامي هو تعدّد الرواة في تلك القرية، ويزيد من اهتمامي أيضاً ذلك الإنصات لكل حرف يقولونه، ومن ثم التأكيد عليه، كأن تهتزّ الرؤوس علامة التأكيد، فتأتيني المفردات تباعاً، فهذا أمر اعتدناه، أو هو جزء من تراث القرية، أو ينبري أحدهم ليقدّم تجربته التي نراها وكأنها لا تخلو من الصدق، أو كأنه استعاد تفاصيلها أكثر من مرة، أما أنا فأكون في دهشة جميلة تساهم في صناعة التفاصيل المليئة بالاستغراب.

ما الذي كان يحوّل أحاديث جلساتنا إلى ذلك المنحى من الذي يباشر بأحاديث الجن والعفاريت؟ أم أن الجميع كانوا يساهمون بذلك، فلا تمضي ليلة خالية منها، وأعتقد الآن أنني كنت أحملها معي إلى ما قبل النوم، لأصوغ منها عشرات القصص، وأعتقد أيضاً بأنها لم تحمل الخوف إلي بقدر ما حملتني إلى عالم عجائبي غريب، فقصّة الطبيب المصري صاحب الشعر الأبيض أدهشتني طويلاً، وفاقت كل ما سمعته في قرية جدي. حدث ذلك في الستّينات وكنا نجلس حوله صامتين. لم يكن عمره يتعدّى الثلاثين، وقور الهيئة بهدوئه ورصانته. أذكره وقد بدأ حديثه بالإشارة إلى شعره الأبيض، ثم التأكيد على أن ما سيرويه هو الذي غيّر لون شعره بعد أن كان أسود فاحماً.

كان من الطبيعي أن أجيد الإصغاء كما يفعل الكبار من حولي. وأتمتع بقدرة على الاستيعاب خاصة وأن ذلك الطبيب يتحدث ببساطة ويستعيد تلك الذكرى

www.alkottob.com

البعيدة وهو الطفل الصغير الذي تعوّد الذهاب مع أقرانه للعب عند القناطر. كانت لعبتهم المفضّلة آنذاك (الاستخباء) فيغمض أحدهم عينيه ويغيب الآخرون، كل يذهب إلى مكان ويختبئ فيه، ثم يأتي الخبر أن ينهض مغمض العينين للبحث عنهم، وفي حال اكتشف مخبأ أحدهم يعتبر معتقلاً، ويقع عليه الدور في الإغماض، ويجدّد اللعب ثانية.

اختبأ هو ذلك العصر، وحين طال اختباؤه شعر في البداية بالفخر، على اعتبار أن اختياره للموقع يعد اكتشافاً هاماً في عالم اللعب، غير أن الوقت الطويل جلب له التوجّس، فخرج ليراهم يتابعون اللعب، وقد استبدلوا لعبة (الاستخباء) بـ (اسكندر) وتقضي هذه بأن يحني أحدهم ظهره ووجهه باتجاه الأرض، ويكون على الباقين القفز من فوقه تباعاً. لم يطل الوقت ليجيئ دوره. كان عليه الانحناء والقيام بالمهمة كما فعل أصدقاؤه الصغار.

هو لا ينسى ذلك اليوم أبداً، وكأن تلك الحادثة تتكرّر للتو، ولا ينسى تلك اللحظات بما تحمل من رعب وخوف، فقد اكتشف وهو مطرق الرأس والأجساد تعبر فوق جسده. اكتشف أن أقدام رفاقه المتقافزين، أو أن جميع أقدام رفاقه المتقافزين تنتهي بأكعاب ماعز، فتذكّر للحال ما كان يروى من قصص عن أولئك الذين يظهرون أحياناً ويغيبون أحياناً، فنهض بكل ما أوتي من قوة وراح يركض باتجاه بيته.

كان قلبه يخفق بشدة، وكان يتذكّر أكثر التفاصيل عن تشكّلهم بطرق تختلف بين مرة وأخرى، كأن بصفة بشر، أو حيوان، أو طير، وكان ما زال يركض ويركض حين لاح له رجل هرم ينظر إليه بحنان، فأسرع إليه لاهثاً، وأخذ يحدّثه عمّا رآه، وكيف خرج من مخبئه ليجد رفاقه يلعبون، فشاركهم اللعب، لكنه اكتشف وهو في غمرة بهجته، اكتشف أن أقدام أصدقائه ليست كقدميه أبداً، ربت الرجل الحنون على كتفه وهدّأ من روعه، وسأله وهو يشير إلى نهاية قدميه، هل تشبه هذه يا بني؟ اكتشف أيضاً أن لقدمي الرجل الهرم كعبي ماعز، فأطلق العنان لساقيه وشعور الموت يلاحقه، فأتى بيته وأصيب بحمّى طويلة الأمد، ليخرج منها بشعر أبيض رافقه منذ الطفولة.

في طفولتي أحببت هذه القصص كثيراً. لم يكن يهمّني أن تكون حقيقة أم من صنع الخيال، وأعتقد بأنني آمنت بحقيقتها، فهذا ما أذكره، ولأنها لم تخفني آنذاك لم تترك عندي ما يسمّونه حالة مرضية، أو عقدة لا حلّ لها، أو هوساً

www.alkottob.com

ينغّص علي الحياة. أما لماذا تهجم على الذاكرة الآن؟ فليس التداعي، أو المقارنة، أو لأوجه الشبه بينها وبين ما يحدث حولي، فالأمور مختلفة تماماً، أذكرها لأنها وقعت، ولأنها لم تكن تعني لي شيئاً البتّة، وأعتقد أنها لو عنت لي لتغيّرت طريقتي في السرد، واختلفت التفاصيل التي ربما لم تكن لتحصل.

***

www.alkottob.com

نسيت كل ما حولي عدا تلك السعادة التي ترفرف علينا في البيت. نسيت الرجل الذي كان يعبر ما بين غرفة الطعام والصالون، أو ربما أنا التي لم تعره اهتماماً في الأصل. حلّ صمت على كل شيء. لم تعد من حركة، أو بلبلة، لم أكن أبحث عن تلك الأشياء أبداً، لكني الآن أتذكّر أن كل الأمور عادت إلى مجراها الطبيعي. لا صوت يأتي من دون مصدر، لا صورة، كانت الأيام تمر بسرعة، فأجد ابنتي منهمكة بتجهيز بيتها. كانت قد نسيت فكرة العمل التي شغلتها، وتعليق أم ظافر ساخرة بأن راتبها الشهري لا يعادل أجر ثوب عند أمها. أما هي فابتسمت وأكّدت حبها للعمل واعتباره جزءاً متمّماً للحياة، وجزءاً هامّاً من تحقيق الذات. كنت أعرف أنها ذات شخصية متوازنة، وما صمتها خلال السنوات الماضية سوى جزء من هذه الشخصية، فعليها الدفاع عن اختيارها إلى أن تستوي الأمور، وعليها التأني، فلا بد من عودة الزوج الذي أحبها وأرادها في يوم مضى، وأعرف أيضاً بأن العمل يتناقض مع المسؤوليات الأخرى والهامّة. لقد تبدّلت قناعاتها مؤقتّاً ريثما يكبر الصغيران، وبعد أن قرّر ظافر الاستقلالية في بيت يخصّه مع زوجته وابنيه، وربما لما طرأ على علاقتهما من جديد، ولطرح فكرة العمل من قبل الزوج الذي كان يستنكرها في السابق، وحين عاد ظهراً كان يحمل كتباً خاصة بالثانوية، ودفاتر وأقلاماً، وكان مبتهجاً وهو يحكي عن التفاصيل، وأن باستطاعته هذا العام نيل الشهادة، وأشار على زوجته أن تحذو حذوه، فالفرص متاحة لهما، والمساعدة موجودة، وكان يلمح إليّ وإلى أمه، كنت في غاية السعادة، هل سيتحقّق حلمي الذي غاب، وتعود ابنتي إلى طلب العلم من جديد؟

كم أصبحت حياتها جميلة؟ أصبح للحوار طعم وللحديث طعم، وللنقاش أيضاً طعم، فتنتابني السعادة وأنا أتلمّس أن ما بينهما أكثر من حب ووئام، فهنالك أمور يشتركان فيها باستمرار، وحياة تجمعهما ما بين الماضي والمقبل، فيحلو لي في أحيان التدخّل وإبداء الرأي، ولا أدري لماذا؟ هل لأصل إلى قناعة أكبر؟ أو للتأكد؟ يمتعض ظافر قليلاً، وأكتشف بعد ذلك أنه عمل برأيي، وذات مرة عرفت

www.alkottob.com

بأنه امتدحني، وهو الذي لا يحاول الجهر بهذا أمامي، يكفي أن يفعل ذلك، لقد ابتسمت في سرّي. فهل لأوراق الدفلى فعل واسع المدى والطيف؟ تذكّرت بأنني قد نسيتها، ورحت أعقد المقارنات وأسابيع النسيان، وأكتشف بأنني لم أقم بفعل الكتابة منذ أسابيع طويلة، فأحاول استرجاع تصرّفات ظافر، إنه هو كما تمنّيت أن يكون، وربما ازداد التصاقاً ببيته وأسرته، وازداد حبّاً وعرفاناً، وتصاعد تعلّقه بعمله الذي يتحدّث عنه في كل مناسبة، هل أثمرت المعالجة؟ هذا ما أعتقده وأوقن به يوماً إثر يوم، وتوصّلت أخيراً إلى أن الكتابة على الأوراق وهي ما زالت تتغذّى من الجذور والتراب، ثم يحدث فعل القطاف، له فعل أكبر وأطول وأهم.

أصبحت أستيقظ على أصوات الصغيرين. رافي وأخيه. نهرع إلى التلفاز. ونحن نخب بطريقة مصطنعة، ونتضاحك، ونتسابق. من يصل أولاً؟ فأترك لهما الفرص. أصبحت مولعة بهما كثيراً. أصبح وقت انفصالهما عني قريباً، لم أحاول التفكير بذلك وكأنهما لن يفارقاني أبداً. أكرر كل صباح ما سنفعله. أملي عليهما أوامر الطاعة، فالعمل ينتظرني، الأقمشة متراكمة، والأثواب متراكمة، وعلي مضاعفة العمل لتجهيزها في موعدها، لكنهما يتضاحكان ويتدافعان، رافي يرغب بسماع فيروز، وأخوه يهوى مشاهدة الصور المتحركة، لذا قسّمت لهما الوقت. كانت نظرات رافي تتقافز مع إيقاع الموسيقى وهو يراقبني بطرف عينه. ألاحظ تقاطيعه وقد سكنتها الطمأنينة، أما الصغير فراح في بكاء. كان عليّ العودة إلى الصور المتحرّكة، جنّ رافي ودفع أخاه أرضاً. بكى هذا بقهر شديد. كانت أمهما قد استيقظت وأحضرت لهما وجبتي حليب مع الشوفان، وانتهى الأمر إلى أن راحا يأكلان بصمت، وهما مشدودان إلى برنامج الأطفال الصباحي.

كانت شهيّتي مفتوحة للطعام تلك الفترة بطريقة لافتة، فأبرّر نهمي بوجوب الأكل قبل شرب القهوة، وقبل التدخين، وقبل حبوب مرض الضغط المزمن، ثم أتذرّع بالضجر، ثم بالتفكير والقلق، إلى أن ازددت سمنة، ولأنني لا أقوم بمزيد من الحركة بحكم عملي في الخياطة، فقد انصعت لأوامر الطبيب بممارسة المشي. بالنسبة لي فضّلت المشي الصباحي، فكنت أعود إلى البيت متدفّقة نشاطاً، يكون الصغيران بانتظاري على أحر من الجمر.

اكتشفت عبر ممارستي للمشي أكثر مواقع الجمال في الطبيعة. كان البحر يزغرد كل صباح في مسمعي، فأطرب لرؤية الزبد المتدفّق والذي يستلقي أخيراً على الشط الهادئ، كعاشق تعب من الانتظار. راق لي الحلم والتخيّل، واستعادة

www.alkottob.com

ما أحفظه من شعر، وهيئ لي بأنني أستغرق في التفكير، أو أخرج ببعض الفلسفات الجميلة، التي وصفتها بالرقي. حدث هذا وكنت أستعيد ما أسمعه من أخبار في الفضائيات المتعدّدة، وما يتعرّض له كوكبنا الجميل من كوارث، بالنسبة لي أرّقتني كثيراً فكرة الزلازل، أمس واليوم، ولا أعلم لماذا تأتيني تلك الأخبار عنها؟ وهل أنا التي أتابعها؟ نحن نعيش فوق فالق يمتد من الشمال إلى الجنوب، ومذ عرفت تلك المعلومة وأنا أنتظر تحققها، الهاجس قضّ مضجعي، الموت المقسّط على أكثر من دفعة، فليأت الزلزال ويحقّق ذاته لينتهي الأمر، فأتأسف على هذا الكوكب الذي لم يلفت انتباهي في الماضي، كم وقفنا بدهشة أمام لوحة لا تتعدّى الصفحة، بينما قد استمدّت من عالم فسيح هو كل اللوحات، هو جميع ما رسم وكتب على مر الأزمان. لوحات حيّة. أرض وبحر. جبال وأنهار. غابات وسماء. الجمال في كل مكان، في كل جزء من هذا العالم، غير أن الفضائيات لا تتركنا نتعايش ببساطة، فتأتي تؤرّقنا وتؤرّق الجمال فينا. بأحاديثها اللا متناهية المصادر. الزلازل. البراكين. ما يعتمل في باطن الأرض. ما يحوم حولها. المركبات. النيازك. أشياء متساقطة من الشمس، سحابات مغناطيسية. انفجارات في الغلاف الجوي. ثقب في الأوزون. كل شيء إلى زوال. الأشجار تقطع. البحر يلوّث. ترى هل ستنتهي الحياة ذات يوم؟ هل سيتوّقف كل شيء؟ فأتذكّر حفيديّ. يخفق قلبي وأشتاق إليهما. أسرع الخطا. أمر قرب أشجار الدفلى التي تقسم الشوارع، وهي تتدلّى بأوراقها الغاصّة ، وأهرع إلى البيت. أرى حفيديّ بانتظاري. أشعر بالشوق الكبير لابنتي وابنيها، وأفكر ببيتهم وباللمسات الأخيرة، وأحسب حساب مغادرتهم لي. لكن!. سأنهي مشواري كل صباح بينهم. يكونون في انتظاري. كنت أفكّر ولا أدري لم احتلّتني الكآبة.

كان مشواري طويلاً ذلك الصباح. كنت أسير بسرعة وأكتشف بأن ذهني قد توقّف عند اللحظات التي ستتم فيها المغادرة، وكيف سيمر اليوم الأول؟ بنهاره وليله. ذرفت أكثر من دمعة، قرّرت العودة لأرى ابنتي وابنيها في انتظاري، كانوا حولي يتضاحكون، فقد أتاهم اعتقاد قبل قليل بأنني لم أخرج هذا الصباح لممارسة المشي، إذ كان صوتي وأنا نائمة يأتيهم عالياً من غرفتي.

ردّد رافي الكلمات ببساطة (كنت تشخرين يا تاتا) ضحكت أمه وأكّدت أن ذلك حقيقة، وحين أتوا لتفقّدي اكتشفوا أنني لست في الفراش، وكان صوت الشخير قد توقّف. قلت بلا مبالاة بأن هذا ما يسمّونه خداع سمع. هل كنت قد

www.alkottob.com

تعوّدت على كل غريب لأطلق عليه صفة الخداع؟ فقد تجاهلت الفكرة للحال، وربما استمدّت ابنتي اطمئنانها مني، خاصة وأن ذلك ليس المرة الأولى التي تمرّ بها في أمر مشابه، وربما لأن لا علاج لمثل هذه الأمور التي لم يعرف مصدرها، ويبقى على العقل الدور الهام في نفي كل ما هو غير طبيعي في الحياة.

***

www.alkottob.com

تراءى لي الرجل حتى الآن سبع مرات، جميعها من تلك الزاوية، أما من أماكن أخرى، فلم يره أحد مطلقاً. تراءى لي ثلاث مرّات، ولابنة أخي مرة، وجارتي مرة، وإحدى الزبونات التي أصيبت بالدهشة، واضطّررت وأنا أسحبها من يدها لمعاينة المكان، فقد وصفته برأسه الصغير، وسترته البنية، وبنطاله الداكن. لم يكن يشابه ظافراً. وترتّب على وضعها في الصورة، خوف الأقاويل التي اشتهر بها سكان الحي. لم يكن ذلك سوى خداع بصر، وحين ألقت نظرة على المكان بسملت وانتهى الأمر، إلى أن أتت أختها ذات يوم وجلست في ذلك الموقع، وبدت عليها الدهشة وهي تحملق في مكان انطلاق الرجل، فتكفّلت هي هذه المرّة بتفسير تلك الظاهرة، ولم يفتهما وصفه بالتناوب، لباسه، شكله، حركته، وانهمكتا بمراقبة رافي وأخيه وهما يلعبان في تلك النقطة بالذات، وعادتا تتحدَّثان في مواضيع مشابهة يلعب فيها البصر، وأحياناً السمع، وانسجمت معهما بأكثر من استشهاد، واكتشفت بأنهما تعرفان عن حوادث مماثلة أكثر ممّا أعرف. خاصة الأخت الصغرى التي تؤكّد أن روح أمها التي ماتت قبل سنوات، تعيش معها في بيتها المترامي الأطراف، وقد تأكَّدت من صوتها أكثر من مرة، وكان أن دبَّ الخوف إليها في بداية الأمر، فتسمع صوت حركة، أو تنفّس، غير أن الخوف زال حين لاح خيال أمها ذات مساء، وهيئ لها أنها أرادت الاطمئنان على راحتها، حين سمعت همسها وكأنها تسألها: (ألم تتعبي؟). أما هي فكانت تجهّز طعام الغد، وكان الوقت ليلاً، ولم تخف أبداً.

أنهت الحديث عن أمها وانخرطت مع أختها في أحاديث أخرى. كنت أنظر إليهما بتعجّب، كأن أمراً هاماً لم يقل، وانهمكت كل منهما بتقليب صفحات (الجرنال)، للاطّلاع على أحدث الأزياء واتّفقتا أخيراً على ترك ذلك لذوقي الفني، فمن خلال تجربتهما توصّلتا إلى يقين من أنني أهم مصمّمة، ولو أن الفرص تتاح لي لكنت بين مصممي أزياء العالم، الذين يشار إليهم بالإصبع. ضحكت، لم تكن المرة الأولى التي أسمع بها مديحاً كهذا، لم أفكّر بما قالتاه، كنت مشغولة بما يحدث في ذلك البيت، وحملت الدهشة إلى أن رحلتا.

www.alkottob.com

أعترف أن قصَّة تلك المرأة أخافتني، لكنني اطمأننت بعض الشيء، فهي في وضع لا تحسد عليه، ولا أستطيع التفكير بأن شيئاً مشابهاً يحدث في بيتي ولا أخاف أو أصاب بالرعب. لذا عليَّ طيُّ موضوعي تماماً، والانشغال بأشياء أهم من ذلك، فقد استعدت مجمل الأحداث السابقة، واكتشفت بساطتها طالما أن هناك أموراً تحدث في كل مكان، وأرجعت كل شيء إلى فرط في الرهافة والحسّ والترقّب الذي يجعل للنسمة صوتاً، وللحركة وللظل.

كانت الأمور تسير على ما يرام، لا أذكر حدثاً تغّص علينا وجودنا، أو سبّب همَّاً، على عكس ذلك، وكأننا أقمنا معاهدة مع الراحة والسكينة، ومع ما يسهّل العيش، توسّع عمل ظافر، وأخذ عملي صفة الجودة، وكأنني أجري نحو الشهرة خطوة إثر خطوة، فقد فوجئت في صباح اليوم الثاني بدعوة خاصّة، للمشاركة في مسابقة، غايتها اختيار أفضل تصميم لأثواب العام الجديد، كان هذا أهم ما حدث معي منذ موت زوجي، ولا أدري لماذا تذكّرته كثيراً، فلو كان حيَّاً لشاهد ما الذي ينتظرني من مفاجآت، ورحت أهتف لمن أعرفه أو يمتّ لي بقرابة، علَّه ينقل الخبر الذي أفرحني بطريقة مذهلة.

كان عليّ دراسة الفكرة، فيجب أن أحسن الاختيار، ابتداء من اللون والزي والشكل. كان لديّ من الوقت ما يكفي، وعرفت في أيام لاحقة أن أشهر المصمّمين، سيشتركون في تلك المسابقة التي ستأتي بالشهرة والبحبوحة لمن يصممّ أفضل ثوب، ورحت أحلم بأكثر من ذلك، إذ لم تقف أحلامي عند ذلك، فقد تفاءلت أكثر وحلمت أكثر، لماذا لا أكون صاحبة مصنع خاص بالألبسة الجاهزة؟ بل بالألبسة الخاصة، والتي تكون للنخبة. يكون لدي عشرات العاملات، والآليات. كم ستفرح ابنتي؟ وحفيداي؟ وابني؟ الذي سيتدفّق عليه المال، ويجاري زملاءه الآتين من بلاد الذهب. كنت سعيدة ذلك اليوم. غفوت على الأحلام، والتصوّرات. على مشاريع النجاح، فلابد أن يتميّز عملي. وسأتفوّق على المصممّين والمصمّمات، وتلاحقني وسائل الإعلام. الصحف. المجلاّت. الفضائيات. ستفتخر ابنتي بي، سيتابعني رافي وأخوه باستغراب. ما الذي يحدث مع جدّتهم؟ كيف وصلت إلى ماهي عليه؟ كيف نالت الاستحسان؟ وأكون في نشوة التميّز والنجاح.

لا أدري هل غفوت تلك الليلة؟ أم أن الفرح أخذ مني كل مأخذ؟ فقد

www.alkottob.com

استيقظت ليلاً على دوار في رأسي، وحرارة شديدة في جسدي، وهاجمتني في الليل حالة تشبه التسمّم. تقيّأت أكثر من مرة، ودهمني الإسهال أكثر من مرة، وكان المغص يقطّع أمعائي، واستطعت خلال ذلك نسف كل أحلامي. فكّرت بأيام قادمة. بالوحدة التي تنتظرني. بكيت وتقوقعت في السرير، وانسجمت مع الألم، وكنت أندب حظّي ولا أدري لذلك سبباً. ولا أدري كم مرَّ من الوقت، فقد استيقظت على رنين الهاتف. كان ابني يشكو القلة، ويطالبني بفك الضائقة التي يرى نفسه متورّطاً فيها يوماً إثر يوم.

شعرت بأنني في صحة جيدة، كنت قد نسيت ألم الليل وهواجسه. فكّرت بابني وتأمين طلبه. لعبت مع حفيدّي طويلاً. أتت العاملة تذكّرني بيوم استقبال الزبونات. رحنا نستعد إلى أن تدفقت النسوة، وكن مبتهجات بخبر الدعوة الموجّهة إليّ، ورحن في أحاديث عن حدسهن الذي سبق الدعوة، فقد كنّ ينتظرن حدثاً مشابهاً، اليوم أو غداً.

أحضرت العاملة (ركوة) القهوة، ورحنا نرشفها بهدوء، لا أدري لماذا باغتتني شعور الكراهية لكل عمل، وليس للخياطة بالذات. شعرت بأنني كبرت وتعبت. يكفيني أن أصمّم وأترك المتابعة لغيري، لقد تضاءلت استطاعتي. كل ما أقوم به يشقيني. الخيط وثقب الإبرة، وبصري الضعيف. هذه مهنة تجرّ الويل على أصحابها، فما من امرأة تمتهنها إلاّ وتعرَّضت لما ينغّص حياتها، إما أن يموت زوجها أو يذيقها العذاب، وربما تتعرّض للأمراض، كالتهاب المفاصل أو الشحوم، أو تضخّم الساقين، كما يفعل الاسم أحياناً، فيصيب حامليه بعوامل مشتركة، كالفقر واليتم وضيق الحال والتعب أو المرض، ويأتي الطبيب ليضخّم الأمر، وقد يعطي أوامر المشي الذي أراه نوعاً من أنواع الشقاء، أمور كثيرة تدفعني في أوقات الوحدة للغناء بملء صوتي، إن لم يكن يسمعني أحد، وبصمت إن كان سيتناهى إلى الآخرين، أغنّي بشوق وحنين للراحة والعيش بطأنينة وهدوء.

* * *

www.alkottob.com

www.alkottob.com

www.alkottob.com

فاجأتني العاملة في الصباح بخبر زواجها من الرجل الهرم، وعليها ترك العمل ابتداء من الغد، فالرجل ثري ويحتاج إلى زوجة ترعى شؤون البيت. لم تكن سعيدة بقدر ما كانت راضية، فهذا قد كتب لها، وعليها مراضاة أبيها الذي يصرّ على تزويجها. لم أشأ التدخّل، فهي تعرف رأيي منذ البداية، ورحت أفكّر ببديل، كان من الصعب حمل عبء البيت أو العمل بمفردي، خاصة وأن ابنتي تستعد للانتقال، فقد أنجز بيت الأسرة الصغير. كان ظافر منهمكاً بنقل الفكرة إلى زوجته، وكنت أراقبها وهي تجمع الحقائب. كان منظر رافي وأخيه وهما يقدّمان العون أجمل ما سأراه في حياتي، بينما تنهرهما أمهما. شعرت بغصَّة وحاولت الابتعاد عن التفكير، أو أن ما يحدث هو أمر مؤقت. يجب إبعاد فكرة غيابهم عن ذهني، هذا أهم ما يجب التفكير به، كأن أقول إنهم في رحلة قصيرة، أيام فقط ويعودون لي. كنت أعرف أنني أكذب على نفسي، لكن هذا سيحملني إلى حالة مختلفة، وبحثت عن سبب آخر أشغل نفسي به، وتوصّلت إلى التفكير بسفري الذي تزامن وقوعه مع فترة انتقالهم، وعليَّ الاستعداد أيضاً، حيث سأقيم أسبوعاً. هذه الفكرة التي أتت في أوانها، وذلك الغياب الذي سيلهيني مؤقتاً، ثم أعود وقد تعودّت على الفكرة أو تقبَّلتها، وربما أحمل معي جائزة التميّز، فيتحوَّل الأسى إلى بهجة، وتحدث الانطلاقة التي أحلم بها، وتكون المؤشّر الجديد على التغيير الذي سيطرأ على حياتي.

أتاني هاتف من تميم. فوجئت في البداية، ثم انسجمت معه في الحديث، فقد تذكَّرت أيام الصبا، وقراءة الكف والفنجان، وهواياته في الكشف عن الطالع وما تقوله الأبراج، وأحاديثه عن تطوير نفسه للوصول إلى مخاطبة الأرواح، والجن. تذكّرت تلك الأيام التي جلب فيها السعادة لإحدانا والتعاسة لأخرى، أو الرعب أو الطمأنينة معاً، وكنت قد نسيته في زحمة الحياة. الزواج والأسرة، والمسؤوليات. كان شكله يوحي بالسحرة والمشعوذين، بوجهه المنمنم ورأسه الصغير، وصوته الذي يخرج من حنجرته مباشرة، وحين أتاني صوته لم أستطع سوى التذكّر، سألته عن أحواله وصحّته، فعرفت أنه يتعاطى التنجيم وأنه مريض بالإدمان. ضحكت

www.alkottob.com

فقد تذكّرت تلك الأيام، وكنا ذات صباح عند صديقتي التي تمّت له بصلة قرابة، وكان يجلس على مقعد خشبي، راح يسأل كلاً منا على حدة هل تستطيع مشاهدته وهو يطير مع كرسيه نحو الأعلى، ولأننا لم نر ذلك نقول بالإجماع لا، غير أنه كان يصر على أنه طائر ومحلّق ونحن الكاذبات.

سألني تميم، إن كنت قد استيقظت ليلاً وقبل أيام، على حالة من تسمُّم، مع ألم في منطقة البطن والرأس، أجبته على الفور أجل، وكدت أسرد تفاصيل تلك الليلة المشؤومة، حين تذكَّرت بأن ما حدث لم أروه لأحد، وأنني قد نسيت ذلك في صباح اليوم الثاني. سألته بدهشة أن كيف عرف بهذا؟ أجاب بصوت خارج من عمق حنجرته، وبإسهاب وثقة، بأنه شاهدني وهو يستحضر الجن ليلاً. ضحكت في البداية، كما كنا نفعل ونحن صغار، وتابعت المزاح، وما سبب ما حصل لي؟ كان ذلك بسبب اصطدامي بأحد أبناء الجن، هذا مضحك حقاً. ثم ماذا يا تميم؟ لقد تألم الطفل وعليك بالمقابل أن تتحملي الألم. ضحكت أكثر. قلت:

. لماذا لم يبعد هذا الجنّي عن طريقي؟ أليس هذا أفضل له ولي؟!

ـ لا تمزحي!... إني أقول الحقيقة. هم يروننا ونحن لا نراهم، فنصطدم بأحدهم إن كنا مسرعي الخطا نزعجهم حين نسكب ماء ساخناً، بطريقة فجائية فتصيبهم، أو لأسباب كثيرة لا داعي لذكرها.

. إذن هم في كل مكان؟

. أنت تتهكّمين.

ضحكت ثانية. هذا تميم الذي لن يتبدّل، ولن يتغيّر. أغلقت الهاتف، وغلبني التفكير، فكيف توصّل تميم إلى تلك المعرفة؟ وهل حقاً يعرف الخفايا؟ وتوصّلت إلى أنه استطاع معرفة حالة التسممّ التي وقعت بها، واستبعدت أن يكون ذلك نتيجة اصطدامي بجنّي أو ابن جنّي كما قال، واستطعت تذكّر بعض ما كان يروى أمامي، حين أكلت (الأرضة) عصا سليمان التي كان يتكِّئُ عليها، فسقط على الأرض ليكتشفوا أنه قد مات قبل عام، فندموا كثيراً على ما ذاقوه خلال تلك الفترة من عذاب أليم، وكانوا قد سخّروا لطاعته والقيام على خدمته.

لم يبعدني هاتف تميم أو أحاديثه عن التفكير بابنتي وانتقالها السريع، وحين حدِّد الموعد وجدت نفسي منزوية في غرفة الخياطة، أصطنع الانهماك بالعمل، كنت أنهض وأتحرّك وقلبي ينفطر من الأسى. راحت دموعي تهطل فجأة، وتنبّهت في زحمة التفكير إلى أن الصغيرين يجلسان متلاصقين، وقد توسَّعت عيونهما،

www.alkottob.com

جفّفت دموعي ورحت أحضنهما، وأجبت على سؤال رافي بأن يدي تؤلمني، فهرع يقبّلها وهرع الصغير يحذو حذوه. كانت لحظات أبدية، غمرتني السعادة، ورحت أقبل يد كل منهما ووجهه وشعره، واستسلمت لكل ما سيحدث ولكل ما سيأتي، فوجودهما أينما كانا يستطيع انتشالي من الحزن، وحمايتي من السقوط، فأنا أدرك معنى ابتعادهم، وأن يفرغ البيت الذي ملئ بالحياة، وأعرف أيضاً أن اللقاء سيحدث باستمرار. لكن؟ لهم حياتهم التي يجب أن يعيشوها، وأن يكوّنوا أسرة متضامنة، ولا نعلم ما الذي تخبئه الحياة، فربما تعمل ابنتي، وتضطر لمن يهتم بابنيها، فأكون أنا البديل، وربما يأتيان في أوقات متفرّقة. يلعبان أو يدرسان ثم ينامان، وقد يحدث هذا أكثر من مرة في الأسبوع.

لقد جهّز البيت تماماً، ونقلت إليه المفروشات، وهيئ لي أن الأمر أتى على عجل، إذ كانوا يستعدّون للمغادرة، لم تشأ ابنتي إضفاء طابع الوداع. خرجت وعادت ثانية. أشارت إلى عودتها بعد قليل، فلديها بعض الترتيبات. كان الطفلان سعيدين. شيء جديد يمر بحياتيهما، شيء لا يدريان كنهه، لكنه مبهج. شدّني الصغير من يدي وطالبني بمرافقته. اصطنعت الابتسام بينما الغصّة تخنقني، فأنا سألحق بهم. كان رافي يتقافز من الفرحة، وعدني بعودة سريعة. تلك الساعة كانوا قد خرجوا بأجمعهم. أغلقت الباب وجلست أبكي.

نهضت أحضر فنجاناً من القهوة، تذكّرت العاملة التي غادرتني وأنا بأمس الحاجة إليها. البيت كبير وفارغ، دخلت غرفة ابنتي. بدت الخزانة المفتوحة فارغة. خفت. أغلقتها. ألقيت نظرة على الأسرّة. سرير رافي وأخيه، لامسته بكفي. انحنيت أقبله. عدت أمسح الغرفة بنظراتي وخرجت.

حضرت ابنتي مع ابنيها مساءً. قالت إنها جاءت لسببين، لوداعي إذ سأنطلق في الصباح الباكر إلى دمشق، حيث ستبدأ سفرتي، ولشوقها لكل ما في هذا البيت، الذي ضمَّها سنوات عمرها، في السّراء والضرّاء. اغرورقت عيناها بالدموع ونهضت تشغل نفسها بالثوب الذي صمّمته للاشتراك في المسابقة، وعلّقت على آخر اللمساتِ التي أضفت عليه مزيداً من الرونق والأناقة، وراحت تعلّق بمزاح فهو سيدخل عالم الشهرة، وتمنّت لو جاءت الفكرة باصطحاب عارضة خاصَّة لارتدائه، لكانت رافقتني. تدخّل رافي جاداً فهو يرغب بالسفر معي. أسرعت أعانقه، ولم أنس الصغير الذي يبدو حين يكبر حاملاً شخصية مختلفة عن أخيه، يبدو صامتاً ومفكِّراً. بدا سعيداً. وأنا أنتقل لمعانقته. ابتسم برقة، ولم ينس التقاط نظرة من أمه وأخيه الذي

www.alkottob.com

كان يراقبه بتمعّن.

وجدت نفسي وحيدة في المساء. كان كل شيء قد جهز، فعليّ السفر باكراً وبالتالي النوم باكراً، ورحت أفكّر بترتيب القدر لكل أمر. انفصال ابنتي وأسرتها عني. رحيل العاملة، وذلك التوقيت في سفري. لابد من وجود قدرة ما غائبة عن البشر، تنظّم الحياة بتفاصيلها، كما ينبلج الصبح وتشرق الشمس أو تغيب، كما يظهر القمر هلالاً ويكبر، ويعود للتراجع على أمل العودة من جديد، وتوصّلت إلى قناعة، كل شيء لصالحي، كان من الممكن أن تنقلب الأمور وتختلف المواقع. كل شي وارد في هذا العالم المليء بالأسرار.

عمَّ الظلام فجأة. قطع التيار الكهربائي، أصبح الظلام دامساً. كنت ما زلت أجمع حوائجي، وما زال الوقت مساء. لم يكن باستطاعتي الرؤية. الستائر مسدلة، والبيت مبني على الطريقة القديمة. متشعّب وواسع. يفضي إلى شرفات تحيط به من كل جانب. كان عليَّ العودة إلى غرفة الخياطة. تلك اللحظة التي لا أستطيع نسيانها. كيف تذكَّرت الرجل الذي يعبر ذلك المكان الذي يجب أن أمر به؟ ولماذا أخاف منه بالذات؟ ولماذا الآن؟ هل لأنني أصبحت بمفردي؟ هل لأحاديث تميم؟ أم تلك المرأة التي تظهر لها أمها ولا تخاف؟ أم؟ وقفت والرعب يسربلني، حين طرأت الفكرة على ذهني. كان قلبي يخفق وأنا أمد يدي إلى الأمام، وسط العتمة، يجب كسب الوقت والسرعة. سرت خطوة أو أكثر. تعثّرت بشيء قاس. نهضت. كانت وجهتي الشرفة الضيقة. عبرت منها إلى الطرف الآخر من الصالون، وأنا أتجه إلى الشرفة الواسعة، وأتجه مباشرة إلى غرفة العمل، وهناك أشعلت الشموع.

حدث هذا في لمح البصر. لم أشعر بالألم الذي أصاب ساقي، وتنبَّهت بعد قليل إلى جرح في الرضفة اليمنى، وحين عاد النور ثانية. هرولت أبحث عمَّا تعثَّرت به. لم أشاهد شيئاً. خفت. أسرعت نحو غرفة النوم واستلقيت، وكعادتي أدرت إبرة المذياع. استمعت إلى بعض الموسيقى والشعر، وتسرب إلى سمعي آخر خبر يتلوه مذيع حاد النبرات، وهو يعيد الموجز بقوله ((أكبر دليل على العدوان هو أن القصف يستهدف مستوطنات آمنة)). أغلقت المذياع أحاول النوم، وأنا أشغل نفسي بأمور تتعلّق بالخارج وأغمض عيني باحثة عن الأمان والسلام.

***

www.alkottob.com

كم كان الطريق جميلاً ذلك الصباح؟.. وذلك الهدوء المتسلل مع ترقّب الفجر، وكأن السائق قد تعمَّد أن نحلم بالفرح، إذ راح صوت فيروز ينهض مع الإشراقة الأولى، وقد انتشرت ألوان سماوية تبزغ رويداً مع أشعة الشمس. ترسل ضوءاً ماسياً يزغرد في الأعماق. شيء يشبه الانطلاقة نحو الحب والفرح، وهدير الباص الذي يذكّر بالتحرُّر من شيء ما، إلى شيء ما، وكأنه يشقّ الطريق فاسحاً المجال للأحلام، ولسنابل الحقل المرصَّعة بشقائق النعمان. يزغرد البحر بوشوشات اللقاء، وهضبات الطريق تنهض بعنفوان، وتقصر المسافات ساعة وراء أخرى، لنكتشف أننا قطعنا الطريق وانتهينا في المحطة الأولى. تأكّدت تلك اللحظات بأنني أعيش التجربة، التي حلمت بها، ويتحتّم عليَّ المتابعة نحو الهدف، والاتجاه نحو الخطوة التالية، للانطلاق من جديد إلى كل المحطّات.

عرفت في المطار أن مصمَّماً شاباً من دمشق يشارك في المسابقة، وأن عددنا سيقارب الثلاثين بين مصمِّم ومصمِّمة، ومن جنسيات مختلفة، ورحت أحلم بالتميز على الجميع. لم لا؟... هذا حق لي كما يحق لكل منهم الحلم، والشعور بالتفوّق والتميّز، ومع تحليق الطائرة تقافزت مشاعري، وحلّقت عالياً، ولم يفارقني شعور النصر، كأنني أولى المصمِّمات. سألقى الإعجاب. ستراقبني الأعين بدهشة. فهل هذه أنا التي تتربّع على عرش الفن؟ أحسست بأنني شابة، فتية. توقّفت الخمسة والأربعون عاماً من عمري، وتراجعت. ربما أصبحت في الأربعين أو أقل، ولم تغب عني تلك الأحاسيس، فحملتها معي إلى البلد الجديد، حيث كان بانتظارنا مندوب عن المؤسّسة التي أعلنت عن المسابقة، ووصلنا الفندق الكبير، وهالتني أجواؤه الجميلة، ابتداء من صالة الاستقبال الواسعة، والتي نبتت في زواياها الأشجار، إلى السلالم المتحركة، والمصاعد المتعدِّدة، والطوابق المفروشة بأناقة، والتي توزَّعت على جوانب المماشي الطويلة، الغرف والأجنحة المخصصّة. أجواء منعشة تعبق بروائح النظافة والتحفّز. استلمت بطاقات تحمل رقم الغرفة والمفتاح، ثم البرنامج اليومي الشيّق والمغري، ورحت أستعد لتطبيق ما يملى من تفاصيل، فقد سجّلت أسماؤنا بالترتيب، كنّا قد قسّمنا على دفعات، بينما خصّص

www.alkottob.com

اليوم الأول لاستقبالنا واختيار العارضات. اخترت إحداهن وكانت تشابه ابنتي، وتمنّيت أن تكون لها مواصفاتها. ضحكت في سرّي، ولم أنم تلك الليلة وأنا أحلم باختيار اللجنة لعملي الجميل. سألقى الإعجاب والدهشة، وأكون أولى المصمِّمات والمصممّين، بل وأفضلهم، وقبل أن أغفو استمعت إلى التصفيق، وشاهدت الجميع يتقدَّمون نحوي. يثنون عليَّ، وكانت بانتظاري أكثر من شركة لتوقيع عقود معي ولابد من أن تصل أخباري إلى ابني الذي سيدهش، ويصبح ابن أهم مصمِّمة للأزياء، ويفرض نفسه عليَّ ليصبح مدير أعمالي، وتتوسّع شهرتي التي سأقطف ثمارها وأقدِّمها له ولأخته ولرافي وأخيه، قبل أن أغفو أيضاً، تذكّرت زوجي وأيام العوز. تمنّيت لو أنه لم يمت لكان شاركنا ثمرات القطاف. تذكّرت تلك المرأة وروح أمها التي تشاركها الحياة في البيت، لو فعل زوجي ذلك لشاركني بهجتي، ولا أدري متى غفوت!

كيف مرَّ الأسبوع لست أدري؟! شبّهت نفسي وكأنني أعيش في حلم لا ينتهي. نسيت مسؤولياتي وأعمال البيت والمطبخ. نسيت العاملة التي كنت أحتاج إليها باستمرار. لأول مرة منذ سنوات أتفرَّغ لنفسي وأموري. أنتقي ثيابي. ألواني. أتحرَّك بعفوية وثقة، وأتوصّل إلى قناعة بأن جميع زملائي في المهنة، يعيشون حالة مشتركة. نلتقي بالصحافة والفضائيات. نسأل. نجيب، وربما تصيبهم مشاعر النجاح، فيغفون على أحلامهم التي تحقَّقت أيضاً بين التصفيق والإعجاب.

هتفت إلى ابنتي أكثر من مرة، ونقلت لها تفاصيل المهرجان. حدّثتني عن رافي وأخيه، وكيف أقلقا راحتها، وكيف يتباريان على الهاتف ويشغلان الخط، وكأنهما يتحادثان إليَّ، لقد بكى الصغير لأنه لم يسمع الصوت المطلوب، في حين أقفل رافي السماعة بغضب وهدَّد بذهابه الفوري إلى بيته الحقيقي.

فرحت بأخبارهم، وتأثرت لابتعادي عنهم، وكأن الغربة تولّد التساؤلات والاهتمامات، فسألتها عن ظافر وعلاقتهما، وهل ما زالت جيّدة؟ فأقسمت أن كل شيء على ما يرام، ويزداد اهتماماً بها وبابنيهما، وهم على أحسن حال وفي وئام مستمر. شعرت بالسعادة، واسترسلت بالفكرة التي طرأت. أنا وأسرتي نعيش حياة مثلى. ابنتي في راحة، وغداً يعود ابني فتكون الأمور على أحسنها، دغدغني الفرح، وكنت أسير منتصبة القامة. أسمع وقع حذائي وموسيقى لا مصدر لها. تذكّرت أغنيتي المغمّسة بالحنين. تذكّرت أمي وغرفة الخياطة. تذكّرت أدق التفاصيل. أوراق الدفلى وشجرة الدفلى، والرجل. ضحكت هذه المرة، وكانت

www.alkottob.com

النتائج ستعلن ذلك العصر، وتهيَّأ كل منا ليتلقَّى الخبر الذي جاء على خلاف ما يتوقَّعه، ولم أعد أسمع شيئاً، فقد خاب أملي دفعة واحدة.

أقيم حفل على شرف النجاح. تخلّله ثناء على بعض التصاميم. ذكرت بعض الأسماء ثم أسمي الذي تردَّد أكثر من مرة. نهضت وعرفت أنني كنت قاب قوسين من النجاح. استلمت شهادة ثناء. كانت أكثر ما جنيته في ذلك المهرجان، وكنت أستعد كما فعل غيري للعودة إلى بلدي. لا أعلم إن كنت أحمل مشاعر الإحباط أو الفشل أو كليهما، غير أنني حملت تفاصيل تجربة هي الأولى في حياتي، وكان شعوري بأن فرصتي الهامة في الحياة أخذت بالتضاؤل شيئاً فشيئاً.

***

www.alkottob.com

www.alkottob.com

سكون فيما حولي. خطوت إلى لا شيء. كان البيت متباعد الأطراف. الستائر تلوح في الطرف الآخر. النوافذ تعكس رؤوس أشجار وطيور مسافرة وسماء بلا نجوم. كان الوقت مساء، وكنت أمشي وكأنني لا أعرف الأماكن. جلست على كرسي في غرفة الطعام. مددت كفّي أمسح شيئاً يشبه الغبار. كان قلبي منقبضاً، وبصري يتحرَّك ولا يحطُّ على شيء، وأنا في يقين أنني لا أرى ولا أسمع، ففي رأسي صور وأحاديث، وفي ذهني نقطة تحوّل. نقطة تبحث عن قرار. عن فعل. كنت جامدة بعقلي وجسدي. هكذا أصبح البيت الذي كان في يوم ضاجّاً بالحياة، ومليئاً بالحب واللعب، وغاصّاً بالأحلام. جامداً مترامياً.

شعرت بالشوق إليهم. نهضت أجمع نفسي. حملت حقيبتي ورحت أهبط الدرج، وأتجه صوب البيت الذي أخذهم مني. صعدت الدرج العريض بخطوات سريعة، قرعت الباب. سمعت أصوات الطفلين. كانا يتناوبان الكلمة (تاتا. تاتا). طالعني وجهاهما. حضنت كلاً منهما بذراع، ورحت أبثُّهما شوق فراق طويل، وكأنهما فارقاني منذ أعوام. كانت ابنتي منهمكة في المطبخ. تتحرّك كأميرة في مملكتها الصغيرة، ضمن بيتها الجميل، الذي يتألف من غرفتين للنوم، وصالون واسع بعض الشيء. طغى على جدرانه اللون الأبيض المؤطّر بالجص، أما المفروشات فكانت أقرب للأزرق الداكن الموشَّى بخيوط فضيّة، وعلى المنضدة إناء له أشكال هندسية متعدِّدة الألوان، وقد تسللت في أرجاء البيت موسيقى عذبة خافتة. شعرت بالراحة ورحت ألاعب الطفلين ريثما تحضر أمهما. فكّرت تلك اللحظة بابني الذي سيحضر في الصيف، كما قال في آخر هواتفه. شعرت بالشوق إليه، وبضرورة مجيئه. سيملأ البيت ثانية. كان ظافر خلال ذلك قد خرج وعاد أكثر من مرة، يحمل مؤونة البراد. بدا سعيداً أيضاً ومفتخراً بما يجلبه من مواد مميّزة، وانهمك بإحضار طبق من فاكهة متعدِّدة الأصناف. قال إن لي فضلاً عليهم. أوحيت له بسروري. كل شيء يوحي بالطمأنينة. هذا عالم جميل. فتيّ. يشقّ الحياة بثقة، ويتحتّم على إتاحة مايجلب الاستمرار، وإبعاد ما يعيق الفرح. عانقتني ابنتي وأنا أنهض للعودة، فتعلّق الصغيران بي، وخيّراني بين البقاء أو مرافقتي، وكنت أعود وقلبي مع الجميع.

www.alkottob.com

خطّطت رسالة طويلة إلى ابني ذلك المساء. لم أترك خاطرة أو فكرة إلاَّ وكتبتها. نقلت له تفاصيل سفري، وما تخلّله من أحداث ومفاجآت، وكيف كنت قاب قوسين من الفوز. لم أحزن. كانت الفكرة وليدة أيام، وكان المهرجان هدية لي وتعويضاً عن مشاعر الفراق الذي وجدت نفسي فيه، لا أدري ما الذي كان سيحدث لو أنهم غادروني وتركوني وحيدة؟ لقد عدت من السفر مشحونة ثقة، ومع هذا شعرت بالغربة وأنا أطأ عتبة البيت، شعرت وكأن بيتنا الجميل أصبح مغارة مهجورة. دبّت الظلمة فيه. لا شيء يذكّر بالحياة أو الأمل. أشعر بغصّة كلما فكّرت بالأيام القادمة. أصبح كل شيء صعباً. الوحدة والحركة والتفكير. لا أدري ما أفعله ولمن؟ كل الأشياء باهتة. بلا لون ولا طعم. كل شيء إلى لا شيء.

كانت مشاعري تتدفّق أحياناً، فأشكو حالتي التي أصبحت بها، وأنقل تفاصيل آلامي وشكواي، ثم أتذكّر فجأة رافي وأخاه فتتحوّل رسالتي إلى بهجة وشوق. الأولاد هم كل شيء. هم الحياة والاستمرار والأمل. لم لا يتزوّج هو؟ يجب أن يحدث ذلك. لم لا يكون في الصيف؟ بالنسبة لي سأبحث له عن ابنة الحلال ريثما يحضر. ستكون جميلة أولاً، وتعرف قيمة الزوج وأسرته. يجب أن يسكنا معي. في كل الأحوال البيت له. أنا ضيفة في هذه الدنيا، وضيفة عليه. "ما رأيك؟ أعرف رأيك. لكن لن تخالف طلبي. لن تكسر خاطري. لا تفكّر كثيراً في الموضوع. سأفكّر عنك. سترى بأنني أهتم بك وبمستقبلك الذي هو أهم أحلامي التي أعيش من أجلها.

ستكتب لي كما أكتب لك. انقلني إلى تفاصيل حياتك. الدراسية وغيرها. أشعر بالشوق إليك. أرجو ألاَّ تغيّر رأيك في المجيئ كما فعلت في الصيف الماضي".

هكذا أضحت حياتي الجديدة. مختلفة عن سابقتها. أنام وأعيش في وحدة فرضتها الأيام، فمذ توفّي زوجي لم يخل البيت من أفراد الأسرة. قبل سفر ابني عادت ابنتي وأسرتها. لم أشعر بالغربة في السابق. هاهو القدر يتسلّط علي. ذلك القدر الذي كان يعمل في يوم لصالحي، وهناءة عيشي. اختلفت الأمور الآن. قست. لا أعتب على زوجي الذي غادر دون استئذان، هو غادرني بمشيئة لا علاقة له بها.. هم غادروني بمشيئتهم. ابني وابنتي وحفيداي. هل هو الشوق إليهم؟ هل هو الحب؟ هل هو التعودّ عليهم، وعليَّ بالمقابل التعودّ على بعادهم؟

www.alkottob.com

هل علي التعوّد على حياة الوحدة. والتأقلم إلى الضجر والخمول؟ أشعر بأنني مكبّلة اليدين. أرمي نظراتي على كل ما حولي ببلادة. لماذا سأتحرّك؟ لماذا سأعمل؟ أخرج إلى الغرفة. أعود لأدخل الصالون. أمسح كل شيء بنظراتي. أعبر إلى غرف النوم. أمرّ هنا وهناك. أستند إلى جدار أو باب. أرجع ثانية. ألمس لوحة. أراقب الغبار العالق على أصبعي. أتجاهل ما أراه. أمشي ببطء، وأقارن نفسي مع نساء مررن بظروف مشابهة، أراهن في أحسن حال، أكثرهن لم يعشن العزلة. أكثرهن تحرّرن. وانطلقن. لست أ دري كيف؟ وما مقوّماتهن؟ هل هو تخطيط؟ هل هي حنكة؟ أم ضرورة أم حق؟ لم لا يكون حقاً أن تتابع الحياة بما ترغب وتهوى وتحب؟ أين تكمن قناعاتي ورغباتي؟ لم أتوصّل إلى جواب أبداً.

***

www.alkottob.com

www.alkottob.com

كأنني أنهض من تعب المرض، أو أعود من سفر طويل. أشعر بأنني كبرت أو قطعت مراحل طويلة من العمر. كأن دوري في الحياة توقّف الآن. رحت أتنقّل في أرجاء البيت. أراقب الغبار المتراكم. الجدران الكامدة. المقاعد المهملة. أعبر كغريبة عن هذا المحيط وكأنني لا أمت لأشيائه بصلة.

ما أبشع النهايات؟ وما أروع الاستمرار بكل أشكاله. الفرح والقهر والعذاب. أمور تذكّر بالحياة والمتابعة، والوجود، وتذكّر بحالات جديدة من تنقّل، واختلاف وعودة. لماذا توقّف كل شيء عن الاستمرار؟ أو لماذا يأتيني هذا الشعور؟ هل بسبب تراجعي وعدم تفوقي في جائزة المهرجان؟ أم بسبب الوحدة التي أرى نفسي فيها؟ أم بسبب ابتعاد ابنتي وابنيها؟ أم بسبب سنوات العمر والملل؟ أسئلة تتناوب في رأسي، فأصل إلى قناعة من أن التعب قد أخذ مني، ويحق لي الراحة. لن أ عمل بعد اليوم. لقد كرهت كل شيء. الخياطة والاستقبالات، وانتقاء الأزياء والتطريز. عليَّ نهج التجديد في حياتي لإنقاذ ما تبقى من العمر، أو سأجد نفسي في تدهور نحو النهاية القاتلة.

أين سأذهب؟ ماذا سأفعل؟ كان السؤال بسيطاً بعض الشيء، خاصة وأن نصيحة الطبيب بداية خطة كدت أنساها، ها هو القدر يخطّط لي. سأخرج في الصباح الباكر. أمشي وأمشي كما هو مطلوب. أعود إلى البيت. أغتسل. أرتدي ثيابي. أخرج ثانية. أذهب إلى ابنتي. أساعدها في أعمال البيت. ألاعب الصغيرين. أعود للبيت. أستلقي قليلاً. أقرأ قليلاً. لم لا أشاهد التلفاز؟ أستمع إلى المذياع؟ أو أتّصل بالصديقات؟ لماذا نسيت صديقاتي طويلاً؟ سلمى التي كانت أفضلهن بالنسبة لي؟ لماذا لا نلتقي ثانية؟ نستعيد الذكريات وأيام الفرح. كان باستطاعتنا في يوم مضى تحويل اللقاءات إلى جلسات ود، وكم غنّينا ورقصنا وابتهجنا؟ ولم يمر في أذهاننا أن كل شيء سيتوقّف، وأننا سننسى أنفسنا؟ هل حدث لهم ما حدث لي؟ هل تعبن من الحياة ومللن المتابعة؟ هل وهل؟

لقد تعبت كثيراً. لم أنتبه لنفسي وأموري. تحق لي الراحة والاهتمام بحياتي

www.alkottob.com

الخاصة، فليعمل ابني من الآن وصاعداً. جميع الطلاّب يعملون في الخارج. ينفقون على أنفسهم. لا ينتظرون من أم أن تصلب وراء آلة الخياطة لتقدّم تعبها ببساطة. لقد خفّ بصري ومناعتي. الضغط يرتفع دون سبب ظاهر. تورّمت قدماي. كرهت هذه الحياة التي لا يتوقّف العمل فيها. كرهت الشقاء الذي تحصده أولئك النسوة. كرهت الأثواب الجميلة التي تعود علي بأجر ليس لي، وليس لأنفقه بتلذّذ. أصبح كل شيء عبئاً على كاهلي. المسؤولية. التفكير. القلق. سأكفّ عن كل شيء. سأرتاح. أشعر بما حولي كقيد يلف يدي وعنقي ويخنقني. أريد الهروب. الابتعاد. الذهاب إلى مكان جميل. إلى قرية. إلى بحر. جبل. إلى أي مكان.

دخلت الغرفة. أطلت النظر إلى الأقمشة المتراصة والتي كنت أحبّها. إلى آلة الخياطة. إلى الرفوف المكتظّة بعلب الخيوط والأزرار ومواد التطريز ومجلات الأزياء. هذه المسؤولية الصعبة. هذا العبء. كل شيء يتسلّط علي. ينغّص حياتي. استلقيت على الأريكة وأنا أردّد. تعبت. تعبت. تعبت من كل شيء. سأتوقّف عن كل شيء. سأعلن ذلك منذ الآن، وليكن بعد ذلك ما يكون.

لاحظت ابنتي حالتي، فنهجت خطّاً جديداً في التعامل معي، فتعمّدت ألاّ تتركني، فتباغتني في البيت. تمضي معي بعض الوقت. فتدبّ الحياة حولي. تزقزق العصافير. أصوات الصغيرين اللذين يحوّلان المكان إلى حديقة غنّاء، فأتذكّر الصباحات الجميلة، و(الصيصان)، و(جمل ماشي)، ولثغة رافي، ووقفته أمام التلفاز ينشد التحيّة، والصغير الذي يثبت وجوده يوماً إثر يوم، وأتلمّس في نفسي رغبة في جلب الفرح إليهما. أعانقهما. ألاعبهما. وأنهض أصنع لهما حلوى. وأعدهما بتحقيق طلباتهما، فيمرّ الوقت بسرعة، ويحين موعد الرحيل أنتشي وهما يصرّان على البقاء، أو اصطحابي، وحين يغادران بين الاحتجاج والرفض، يصمت كل شيء، ويكون علي التخطيط للقائهما من جديد.

أصبحنا لا نفترق. أذهب إليهم بعد رياضة المشي، أو يأتون إليَّ. أحاول قضاء فترة من الوقت بينهم، وحين يأتي المساء، أهرع إلى النوم علَّ الصباح يأتي. أجدّد يومي ويتجدّد الحب والأمل. هكذا انحصرت اهتماماتي. متى سأراهم؟ ما الذي سأطبخه لهم؟ أو سأفاجئهم به؟ هل يحبّون هذا؟ أم هذا؟ ولم أنس خلال ذلك موقف ابني الذي لم يستسغ ما إلت إليه، وكيف عاتبني بقسوة، ثم بتوسّل، هتف لي أكثر من مرَّة، وأتت رسائله تباعاً، وجدت السعادة باهتمامه. وحاجته

www.alkottob.com

القصوى إلي، واستمعت إلى وعوده بالعودة والتعويض الذي يصفه بالمعنوي، وجدت نفسي شيئاً فشيئاً أعود للحلم والاستمرار.

تلمّست مع الأيام ليونة في استقبال الأفكار من حولي، والاستماع إلى الآراء والتحاور مع الغير، أصبحت أتحدّث وأناقش وأفسّر لماذا وكيف نهجت الرفض للحياة، لماذا أردت تغييراً جذرياً في حياتي؟ وأخضع لمد وجزر في التفكير والقول، وأستقبل النقد بابتسامة والنصيحة بالمشاركة، وأظهر رغبة في المناقشة، والغوص في ما يطرح، واكتشف استطاعتي على المتابعة من جديد.

حين قرع الباب في الصباح لم أتوقّع قدوم العاملة. كانت قد هزلت وعلت وجهها مسحة كآبة. قابلتها بالترحاب، وأنا ألاحظ انكساراً في حركتها وابتسامتها. أشعرتني بشوقها وحاجتها إلى العودة بعد زواج استمر شهراً، لقد أصبحت مطلّقة، وليست بنادمة. لم يكن الزوج يمتلك شيئاً، وقد نقل قبل زواجه جميع ممتلكاته إلى أبنائه، الذين صرّحوا بأنهم يرغبون لوالدهم بخادمة وليس بزوجة، وهذا ما جعل أبوها يساعدها على الطلاق السريع، لتخرج صفر اليدين.

ماذا أقول، أو ماذا أفعل؟ ما الذي حدث لي؟ ما الذي تغيَّر؟ ما الذي هزَّني وكأنه يعيد لي الذاكرة؟ هل لأنها لعنت حظّها، فهي لم تتعلّم، لم تمارس المهنة. تحتاج للعودة والمتابعة. لم تكن تدري بقراري، وربما لو علمت لما أتت. لكنها هنا بكل إيمان وثقة، ومن هنا تريد الانطلاق نحو المستقبل وتحقيق الذات.

غابت في المطبخ لتعود وقد فاحت رائحة القهوة، وكأنني أستيقظ للتو، لأول مرة أشعر كم كان فضلها كبيراً، وكأنها أقسمت أن تقوم على راحتي. كانت ذلك الصباح أهم مافي البيت. رحت أراقب حركتها، وأعتاد على وجودها، وعلى التفكير بأحلامها وتطلّعاتها، فيما يحملها ويطير إلى عالم الحلم والأمل، ولا أدري لماذا فكّرت بابنتي التي لم تتابع تعليمها أيضاً، ولم يتسنَّ لها فرص العمل. كانت العاملة أثناء ذلك تدخل غرفة العمل. تنغمس في ترتيب كل ما يخص الخياطة. فرزت القصاصات القماشية الصغيرة والكبيرة. جمعت الخيوط المتراكمة. لملمت الدبابيس المتناثرة بقطعة مغناطيسية، وأعادتها إلى العلبة البلاستيكية. طوت الأوراق المخصَّصة لكل تصميم وزيّ. عقدتها بطريقة جميلة. رقّمتها، ورسمت على جانب منها صورة الثوب ومقاسه، وكأنها اكتشفت سروري. أكثرت من الحركة، وانتهت بأن وضعت في مفاصل الآلة زيتاً خاصَّاً، ونظّفت ما علّق على الجوانب، وعادت إليَّ تأخذ الفنجان الفارغ، وتسألني إن كنت أرغب شيئاً. شكرتها،

www.alkottob.com

فابتسمت. وفي المساء غمرتني سعادة قصوى لا أدري سببها. استلقيت في الفراش. أدرت إبرة المذياع. كنت أبحث عن لحن يتسلّل إلى نفسي. التقط سمعي صوت المذيع يتلو آخر خبر. عن ((ضرورة السعي لوضع خطّة لنزع الألغام)).

***

www.alkottob.com

هـاهي الهواتـف تتتـالى. متـى سـأبدأ العمـل؟ متـى سـتكون الخطـوة؟ كانـت العاملة تراقبني بلهفة. لم أكن قد استعددت نفسياً. أردت إرجاء المباشرة، فقد كنت أشعر بحاجة فائقة للراحة، ولترتيب أموري. لم أعط موعداً لأحد، فرغبتي محصورة بتفرّغ أوّلي لنفسي، يجب العودة بثقة وقوّة، وهذا يلزمه بعض القناعة الحقيقة. كنت أكتشف ساعة وراء أخرى أن مجمل تطلّعاتي تتعلّق برغبات ابني، ومجيئه حاملاً شهادته، وبراحة ابنتي مع أسرتها، وضحكات حفيديّ المستمرّة، فكل الأحلام تبتدئ وتنتهي عندهم، وما رغبتي في نجاح أو تميّز سوى هدية لعيونهم، ومن أجل عودة لائقة يجب دراسة الأمر بدقة وتأنّ.

شاركتني العاملة الرأي، وأشارت بوجوب الاهتمام بأمور البيت أولاً، فالجدران كئيبة، والسقوف أيضاً. الغرف رطبة. الأسرّة والخزائن، ومن أجل ذلك يلزمنا أكثر من ورشة. للدهان. للتنظيف. للتلميع، وقرّرنا البدء، وكسب الوقت للتفرغ السريع لعملنا الأساسي.

مرّ شهر على ذلك الحديث. تخلّله مزيد من الحركة والنشاط، فنغتنم مجيئ العمال ودفء الشمس للعمل، فلم يبق شيء في البيت إلاّ وخرج للشمس. المفروشات. قطع الأثاث. الثياب. الكتب، ثم كل ما يتعلّق بالمطبخ. الأواني بأجمعها. الصحون. الطناجر. الملاعق. المؤونة. والعلب، وكنا نعمل بالتوالي. غرفة إثر غرفة ريثما ينتهي العمال من مسحها ودهنها، فتصبح نظيفة. جميلة. خاصّة الأبواب التي لم يمر عليها ما يصقلها خلال عشرين عاماً أو أكثر، وكان أن خرج خلال ذلك الشهر كل ما يحتويه البيت من أثاث ومفروشات إلى النور، ويتحتّم علينا إرجاعها إلى أماكنها بطريقة تليق بهيكل البيت الذي أصبح مختلف الصورة. جميلاً وأنيقاً معاً.

لم تتركنا ابنتي خلال ذلك. كانت تأتي للمساعدة، فأحاول إراحتها، فهي لم تكد تنتهي من أعمال بيتها، ومع إصرارها رحت أترك لها ما خفّ عمله، كالترتيب أو وضع اللمسات، أما رافي وأخوه فكانا في أبهج حال، وقد أتيح لهما اللعب

www.alkottob.com

كيفما اتّفق، على الشرفة أو داخل البيت وبين العمّال، حيث تدور الأحاديث والإرشادات، فيحلو لرافي إعطاء الأوامر. ادهنوا هنا، أو هنا، وهنا أيضاً، فقد جاء دوره في العمل، فأستمع إلى ضحكات العمال الذين لفت انتباههم. أما أخوه الذي كبر بعض الشيء فيكون في رحلة الاستكشاف في أرجاء البيت، فيطيب لي اللعب معهما، أو الاستماع إلى آرائهما العفوية والبريئة. كان أجمل ما بدر منهما، إصرارهما على ترتيب ألعابهما الصغيرة الحجم، بعضها كان من (البلاستيك)، وبعضها من الجص الملوّن، كان عددها بالعشرات، وقد جمعتها من هدايا (الشوكولا) البيضاوية الشكل، والتي توضع ضمنها، واحتفظت بها بوضعها على أحد الرفوف كذكرى لطفولتهما الجميلة، فكنت أحمل كلاً منهما بدوره ليساهم في ترتيبها. لم تأخذ مساحة كبيرة، غير أنها جميلة وتوحي بالبراءة، وفي غمرة تلك التفاصيل التي تميّزت بالحركة والنشاط، شعرت برغبة فائقة لإتمام العمل، حالمة بالبهجة التي ستعمّ البيت.

هاهي الرغبة في العمل تجتاحني من جديد. هل أحيت الأجواء حلم الاستمرار؟ لقد أصبح كل شيء في انتظار لحظة الانطلاق، وكأنني على موعد مع الهدف. مع اللقاء. أما وجه العاملة المتألق باستمرار فيذكّر بالاستعداد، فتدخل إلى غرفة العمل وتخرج ثانية. تلامس الآلة. الرفوف، وفي عينيها يتقافز الفرح، وكأنها نسيت مشاكلها وهمومها، وكأن طاقتها لم تنته إثر قضية طلاقها، بل تجدّدت وتدفّقت أملاً، وكما الأمل يولد ويتوالد مع الأيام، بزغت أحلامي أيضاً، ونبتت شوقاً للمتابعة والعطاء.

تذكّرت ابني وموعد مجيئه. تذكّرت ابنتي حين كانت صغيرة، وكيف كانت تلعب مع أخيها الذي يكبرها بسنوات، والذي دبّت الغيرة في صدره يوم ولدت. تذكّرت أباهما وفرحته بهما. قال بأن الله أكرمه كثيراً. تذكّرت الأيام الجميلة حين كان رافي وأخوه يلاعبانني كل صباح. تذكّرت أشياء كثيرة، وكأنها تهجم عليّ ببساطة، فأنتشي، وبطريقة فجائية تذكّرت أيام المهرجان الجميل، واستغربت كيف فاتتني ذكراه، فاستعدت تفاصيله يوماً فيوماً، وساعة فساعة، واعتبرت أنني لم أخفق في تلك المسابقة. بل تميّزت، هذا ما أوحت به لجنة القرار. كما أوحت بأن الفرص لم تنته، فالمهرجان سيقام كل عام بتصاميم جديدة وألوان جديدة، وعلى المثابرة، فالخلق لا ينتهي، والإبداع لا ينتهي، والنجاح موجود لأنه ضرورة في

www.alkottob.com

الحياة.

لم يبق مكان في البيت لم تمر عليه يد، ولم تبق زاوية إلاّ وكان لها نصيب في الرعاية والعناية، وحين أشارت العاملة إلى نباتات الشرفة، أثنيت على نباهتها، فالورشة ما زالت قائمة، وبإمكاننا تسخير بعض الوقت، لقلب التراب، وإعادة الزرع من جديد. لم يكن الفصل مناسباً، غير أن العاملة أكّدت على أن لها تجربتها في هذا المجال، وأنها تستطيع القيام بفعل الزراعة في كل وقت من السنة، فيدها خضراء. ضحكت في وقت كانت هي جادّة في الحديث، وتمّ الاتفاق على العمل في الصباح الباكر، وعلى استحضار بعض السماد لخلطه مع التراب، لتنشيط الزرع وتجديد الحياة له.

نظرت إلى شجرة الدفلى طويلاً. تلك الشجرة التي كانت خلال فترة من الزمن سرّاً من أسراري العظيمة، فكم قطفت من وريقاتها؟ وكم كتبت عليها؟ وكم جعلتها هدفي ومحور أيامي وأسابيعي؟ وكم جئت إلى (فيللا) شدياق أقطف من أوراقها؟ وشيء عاديّ أن يشاهدني أحد، فلها أزهار جميلة تكون حمراء أحياناً ووردية في أحيان أخرى، وربما لاعتقادي أن الجميع يجهلون فعلها، فالكتاب بحوزتي وليس بحوزة الآخرين. ضحكت في سرّي، فهل كنت أعتقد بفعلها حقاً؟ أصبح ذلك من الذكريات. من الماضي. كانت في البداية فكرة وتحوّلت إلى تجربة، وقمت بها على أحسن وجه، وكما أشار الكتاب، بالتفاصيل والأرقام والأعداد، ولست أدري هل كانت سبباً؟ هل قامت بالفعل كما يؤكّد الكتاب؟ وأنا التي لا تؤمن بالغيبيات، أو بأحاديث لها علاقة باتّصال البشر مع الغيب، الأرواح أو الأشباح أو الجن.

لاحظت بعض البثور المتوضّعة على وريقاتها، والتي أساءت إلى منظرها الذي لم يكن في الأساس جميلاً. لم أفكّر طويلاً. قرّرت نزعها ورميها في سلّة القمامة، وكسباً للوقت أمسكت جذعها بكلتا يدي، ورحت أحرّكها دائرياً، ومن الأمام إلى الخلف، وفي كل الاتّجاهات، وأعمل طاقتي وأعيد الكرّة، بقوة ثم بقسوة، وحين استعصت عليّ توقّفت، وأشرت إلى العاملة أن تقوم بذلك حين تفرغ من أعمالها، وغادرت الشرفة فجأة إلى إحدى الأرائك، فقد شعرت بتعب فجائي في جسدي، وانحطاط ينتشر في جميع مفاصلي.

www.alkottob.com

رنّ الهاتف. أتاني صوت تميم، ودون مقدّمات سألني إن كنت أشعر بتوعّك. تذكّرت هاتفه قبل أكثر من عام، وإرجاع حالة التسمم التي أصابتني ذلك الليل إلى اصطدامي بأحد أبناء الجانّ. شعرت بالخوف. لم أسأله عن شيء يتعلّق بمعرفته وكيف توصّل إليها. صرخت في وجهه أن يصمت. لا أريد الإجابة عن سؤاله، فإن أراد هو التعامل معهم فليفعل، أما أنا فأتعامل مع الملائكة، وأغلقت الهاتف.

***

www.alkottob.com

ارتميت في السرير طوال الليل، وحين نهضت في الصباح شعرت وكأنني قد عشت كابوساً طويلاً، وكأن عشرات الأشخاص يحومون حولي. يقضّون مضجعي، فلا أكاد أشارف على الدخول في عالم النوم، حتى تصفر عاصفة قرب أذني، أو يقرع جرس، أو يهتز السرير. أرجعت كل شيء لتعب النهار، ولتعب الأيام الماضية. ها أنا أحصد ثمار الجهد والحركة المتواصلين. نهضت إلى المطبخ أحضر فنجان قهوتي المعتاد. كان كل شيء هادئاً، بينما نسمات الصيف الأولى تذكّر بمجيئ الحر الشديد. لم أشعر بالضجر، فلكل فصل جماله، ولم أتعوّد الشكوى، فأنا أستقبل الحر كما أستقبل البرد، فالقناعة تأتيني من الداخل، وأتأقلم مع المحيط ببساطة ودون تعقيد.

حضرت العاملة بادية النشاط، على وجهها ابتسامة مشجعّة، وبيدها صفحة ورق كتب عليها بعض تعليمات قدّمها لها بائع الزهور، تحمل كيس سماد بناء على اتفاق الأمس. سبقتني إلى الشرفة بنشاط وتفاؤل. كانت تنقّل نظراتها بين الورقة وبين الأصص والنبتات. تعاين كل نبتة على حدة، وراحت في القراءة. كنت أعرف بأن دراستها الابتدائية تخولها ذلك، لكن ليس بهذه الطلاقة، وتابعت بثقة، فاستبدال الأصص الفخّارية، بأصص أخرى مصنوعة من فخّار مزجّج، أو من (البلاستيك) ضرورة قصوى. أخذت الورقة من يدها إذ لم أستوعب بعض الكلمات الغريبة، وتابعت ما يخصّ التربة، فهنالك أكثر من رأي حول مزيج من المواد، تخلط مع التراب بنسب متفاوتة، فيضاف إلى كل سبعة أجزاء منه جزءان من الرمل الخشن، وجزءان من فوسفات الكالسيوم، وجزء واحد من سلفات البوتاسيوم، وأوقية ونصف من الجير أو يستبدل هذا بالكبريت، وثلاثة أجزاء من مادة أخرى يصعب عليها لفظها، إلى جانب نصائح حول الرطوبة والحرارة، والبرد والحر، وطريقة السقاية، والضوء وأشياء أخرى، أما بائع الزهور فقد نصحها بمختصّ يقوم بهذه المهمّة الصعبة، وهو ينتظر إشارة ليلبّي الخدمة التي هي جزء من عمله.

طالبتها بالصمت، فلسنا بحاجة إلى مختصّ، وليست نباتاتنا أيضاً بحاجة إليه،

www.alkottob.com

ولن يكلّفنا هذا سوى قليل من الوقت، ولم يمض الصباح حتى انتهينا من توزيع النبتات ثانية في أصصها، وأشارت مرّة ثانية إلى شجيرة الدفلى، لإيداعها في سلة المهملات كما هي، فربما انتشرت البثور السوداء التي فوق الوريقات إلى الجذور، وبالتالي إلى الأصص والتراب، ثم نسينا الشرفة من جديد.

تذكّرت تميماً. شعرت بالخوف. كيف عرف بتوعكي؟ ما الذي كان سيقوله لي؟ ما سبب ذلك؟ وهل سيتّهم أولئك مرة ثانية؟ انكفأت في الغرفة راغبة في الانفراد. حاولت إبعاد صورة تميم عن ذاكرتي. لم أفلح! فهل يكون هو؟ لم لا؟ كان دائماً يبحث عن التعمّق في هذا المجال، ومن أجل ذلك يلزمه أشخاص يعرفهم، ويعرف تاريخ حياتهم، وأسماء أمّهاتهم، وتاريخ ميلادهم، أما بالنسبة لي فيعرف عني كل شاردة وواردة. سألني ذات مرة عن كل ذلك، ولم ينس حرفاً، فلابد من أنه يجري تجاربه عليّ. كي يصل إلى ما أفعله؟ أوكيف أعيش؟ لا شك في ذلك، فكيف توصّل إلى ما أنا به أكثر من مرّة؟ كيف عرف قبل عام أو أكثر بحالة التسمّم التي دهمتني ليلاً؟ كيف اكتشف توعّكي بالأمس؟ كيف وكيف؟

توصّلت في لحظات الهدوء إلى أنه هو، ويتحتّم علي إيقافه عند حدّه، فالعالم كبير ومليئ، ولم يتوقّف عليّ، ولن تنتهي تجاربه إن نسيني تماماً، عليه نسيان من أنا. عليه الابتعاد عن طريقي أو سأشكوه لقريبته، فربما يكفّ عني. كنت قد توصّلت إلى تلك القناعة. نهضت. وجدت العاملة بانتظاري، وكنت أرغب بقدح من القهوة. أسرعت نحو المطبخ، وخرجت ثانية إلى الشرفة.

كان في عينيها نظرة توسّل تدعوني لأخذ الخطوة، فكل الأمور على أحسن حال، لقد ساهمت معي طوال شهر، وكانت تأمل أن تكون الخطوة بداية لطريقها الطويل. بالنسبة لي شعرت بالدينَ الذي ترتّب عليّ تجاهها. كنت أرغب بتحقيق حلمها، غير أنني لم أجد الدافع للمباشرة، وعلينا تأجيل الفكرة يوماً أو آخر، فما زال التعب يأخذ مني. كنت صادقة، فشيء بثقل أطنان فوق كتفي، والأغلال في عنقي، غير أنني وعدتها خيراً.

لم يكن ذلك اليوم بداية، إنما نقطة انتباه لشيء ما. قطعت اتصالي مع إحدى الزبونات. التفتّ نحو الصوت الآتي من خلفي. توقّف الصوت. عدت للهاتف. عاد الصوت. أغلقت الهاتف. جلت ببصري. تحرّكت ببطء نحو المطبخ. وجدت العاملة تركض باتّجاهي. سألتني إن كنت قد ناديتها. قلت: لا. سألتني إن كنت في الصالون، فقد أتاها اعتقاد بأنني أرتّب المقاعد، إذ كان صوت ارتطام

www.alkottob.com

بعضها ببعض يعلو. عادت العاملة إلى الداخل، ورحت أفكر بذلك الصوت الذي كان ملاصقاً لسمعي. خطوة فقط. قريبة وليست بعيدة. لم تأت من غرفة أخرى، أو من وراء الجدران. لم تأت من السطح أو من وراء النافذة. رحت أستعيد الصوت. أشبّهه بصحائف من ورق ليس بالمقوّى ولا بالناعم، له خشخشة وكأن يداً تلاعبه بعصبية وتعمّد.

لا أدري إن كنت قد تجاهلت ذلك الصوت، كانت العاملة منهمكة ببعض الأعمال، وكنت أتجه نحو المطبخ، لم أكن أفكّر بشيء، حين سمعت وبطريقة فجائية. صوتاً يأتي من ورائي، ومن أحد رفوف المكتبة المقابلة، والتي يفصلها عن الباب ممشى هو ما بين الصالون وغرفة الخياطة، سمعت شيئاً يقع أرضاً، يشبه صوت إحدى لعب رافي الصغيرة، وحين التفتّ وجدت ما تصوّرته تماماً، كانت الأطراف مهشّمة، وخفيفة الوزن. رحت أجري التجارب. كيف سقطت؟ ولم سقطت؟ الرف مستقيم وفي وضع أفقي، كما أشارت (الزيبقية) دخلت المطبخ ثانية، كان الخوف برعماً صغيراً لا يقوى على تفكيري أو نفسي، لكنه بدأ يتفتّح شيئاً فشيئاً، فلأول مرة يدبّ القلق إليّ. قلق مشوب بالتساؤل. هل في كل مكان تحدث أمور شبيهة؟ وهل إن كانت الأماكن مأهولة، تغيب تلك الأمور عن الانتباه أو السمع؟ وهل كانت حين كانت أسرة ابنتي تملأ البيت حياة، فضاعت في زحمة التحرّكات؟ أم أنها تهيؤات وجدت لها مرتعاً خصباً؟

لم تكن تهيؤات، ولست من النوع الذي يهاب حدثاً مجهول المصدر، فنحن الذين نصنع الأحداث، وكل شيء ممكن في هذا العالم الفسيح، وأنا التي تؤمن بالفلك، وبتلازم المصير الذي ندعوه بالوقوع، مع وجودنا وتحركاتنا، ومع لحظات الولادة والاستمرار، فأبرّر وقوع وحدوث كل شيء، فالأسباب متعدّدة، وربما غامضة، غير أنها لا تستحقّ الخوف. قد تستحق التأمل والغوص في الأسرار، أو البحث في المسببات، فنصل للدهشة أمام قدرات الكون والخالق العظيم.

لماذا أخاف إذن؟ ونحن لم نسمع عن حادثة كان الأذى فيها مجهول المصدر؟ هل لأنني أتلمّس حدوثها الفعلي لأول مرة؟ هل لأن الإيمان بها كان نظرياً ومجرّد تكهّنات وأحاديث وأفكار؟ انتهت تساؤلاتي مع انتهاء العاملة من بعض الأعمال، ومع موعد رحيلها الذي تراه عقيماً كموعد المجيئ. حاولت طمأنتها بإشارة ما، فقد شعرت فجأة بألم في رأسي، (وزغللة) في عيني، وراح فكّاي يصطكّان، وكأن بهما ثقلاً. عرفت بأن الضغط عندي مرتفع، وعليّ في

www.alkottob.com

حال كهذا الابتعاد عن التعب والقلق.

قرّرت تمديد فترة الراحة، ربما لأسباب تخصّ أجواء البيت، اخترت الهروب إلى القرية، إلى سلمى. إحدى صديقاتي العازبات. لا أدري كيف تذكّرتها. كانت تحب الشعر والموسيقى، وتمارس هواية المشي صباحاً ومساء. لا أدري هل غيّرت من عاداتها. كانت أيضاً تكره الالتزام، وهذا ما جعلها تفضّل بقاءها عازبة، على أن تتزوّج برجل تعيش حياتها مرتبطة به وبأمور حياته عشرات السنين.

عدت مساء إلى البيت. كنت قد أخبرت ابنتي عن حاجتي للراحة والهدوء، وسفري المؤقّت إلى القرية، كانت تنظر إليّ بحب. قالت إنها ستشتاق إليّ، وحاولت المزاح، فأنا قد تعوّدت على السفر. علّقت بأنني أصبحت وحيدة، ويحق لي الراحة، فقد تعبت ما فيه الكفاية. عانقتني وهي تنقل لي خبر حملها الثالث. أسعدني ذلك كثيراً، وتمنّيت أن تنجب ابنة. كانت السعادة بادية على محيّاها. حدّثتني عن نجاح ظافر ونيله الثانوية، وعن استعداده للالتحاق بكلية الزراعة. لم يخطئ ظنّها به، أو بطريقة تعامله معها، فهي زوجته وصديقته، ولا أدري لماذا استعدت ذكريات زواجها وبدايته ومعاملته السيئة، وعلاقاته المشبوهة، وتذكّرت أيضاً أوراق الدفلى، فهل هل السبب؟ ربما تكون سبباً وربما لا! فكثيرون من الرجال تبدّلت طباعهم بعد سنوات من الزواج، أو بعد إنجاب أكثر من طفل (فابن آدم خطّاء، وخير الخطّائين التوّابون) وكنت ذلك المساء أعود إلى البيت مشحونة سعادة.

ولجت الباب بوجل. رهبة في البيت، وفي أعماقي أصطنع اللامبالاة. غنّيت بصوت عال، وأنا أتجاهل كل الأفكار التي قد ترد إلى ذهني، وكل المشاعر التي قد تسيطر عليّ، وحين أصبحت أمام غرفة نومي، دخلت على عجل. كنت أشعر بالأمان والطمأنينة في هذا المكان، خاصّة وأنا أستلقي على السرير. هنا تعوّدت أن أكون. لا أدري لم لا أخاف هنا؟ لا يهمّني ما في الخارج. هنا أبتعد عن كل شيء. يضيق البيت ويصبح هذا العالم الصغير، الذي أراه أهم الأمكنة. هنا أنام. أستمع إلى الموسيقى والشعر أو أخبار العالم، وقد أنسى المذياع حتى الصباح. كان صوت فيروز يتسلل كالخدر إلى نفسي، حين قطعه المذيع قائلاً: ((إن اقتحام بعض المناطق.. يسبّب حالة من الخوف)) ضحكت في سرّي. غطّيت رأسي، ولا أدري متى غفوت.

***

www.alkottob.com

في اللحظة التي انطلق فيها الباص، شعرت وكأنني أتحرّر من شيء ما. أو أنني امرأة لا علاقة لها بالأمس. كان ذهني مفتوحاً لاستقبال كل جديد، وقد سيطر عليّ شعور جميل، فالحياة تستحق العيش والاستمرار. لا شيء يستحق القلق والتفكير، فالعمر مهما طال هو كرقّة هدب في عمر الزمن الطويل. كان باستطاعتي احتضان وتقبّل كل إساءات العمر. ظافر وأمه، ومن أساء لي. ضحكت لتلك الأفكار، وبحثت عن إساءة حقيقية، فوجدت أن لا شيء يستحق هدر العاطفة، وأن الحب هو سيّد المواقف وأجمل العواطف. كان قلبي يخفق وكأنني على موعد مع حبيب طال غيابه، وكنت أفكر بسلمى التي لم أرها منذ سنوات طويلة، وأتذكّر أيام الصبا وأحاديث الحب التي شغلتها آنذاك. لم تكن جميلة بقدر ما كانت مرحة. غير أنني لم أستطيع رسم صورة جديدة لها، وكنت مبتهجة لهذا اللقاء الذي حدّد على الهاتف ببساطة وبطريقة عفوية.

وصلت القرية قبل الظهر. كان لقاء حارّاً. نسينا خلاله ما مرّ علينا من سنوات، وتجاهلنا ما تركته الأيام. واستمرّ اللقاء يتدفّق خلال الأسبوع، فإلى جانب اكتشافي منذ اللحظة الأولى أن سلمى تبدو أكثر شباباً مني، أو تصغرني بسنوات، اكتشفت أيضاً أنها تفوقني نشاطاً وحيوية، وأرجعت السبب لعذوبتها وابتعادها عن مسؤوليات البيت والأسرة، فهي تعيش لنفسها، بعيدة عن همّ الآخر، إلى جانب الأجواء التي أحاطت نفسها بها، والتي تصرّ على المحافظة عليها، كالمناخ النظيف البعيد عن أجواء المدينة، وهدوء الطبيعة الساحرة. أما الطعام فتصرّ على أنه أهم ما يشغلها، ففي حاكورتها الصغيرة نبت النعناع والبصل، وما تحتاج إليه من خضار. وفي كل صباح يحضر الحليب الطازج، والبيض والجبن والزبدة. كل شيء في القرية له نكهته المميّزة، وكل موسم له فاكهته. التين والعنب والليمون وغيرها.

اكتشفت أيضاً أكثر من سبب لنضارة سلمى، فاستقبالها للأمور ببساطة خفّف من وطأة الصعب منها. فتنتظر إلى ما يجري بعين الرضا، وتحاول إضفاء المزاح على ما يعترضها، فكان لجلستنا نصيب من هذا المزاح، وشعرت برغبة

www.alkottob.com

في نهج أسلوبها الذي بسّط أحاديثنا، فلم يعد للفكرة رهبة، ولم يعد في القول تردّد، فانطلقنا بسجيّة. نحكي ونفكّر ونقول، فلا شيء يستحق القلق، وربّما ساهمت الطبيعة بهذه المشاعر، فتبدو الأشياء جميلة وتستمر حتى وقت متأخر، ولابد من أننا حملنا ذلك إلى ساعات النوم، فقد لاحظت أن ما في أعماقي قد ارتدّ على نفسي، فأستيقظ وأنا أشعر بنشاط وحيوية، ولم أعد أستغرب حالة سلمى التي أدهشتني في أول يوم التقينا، فقد أصبحت شبيهة بها. أنام وأنهض وأتحرّك، وفي داخلي شعور بالحب لكل ما حولي، ولكل أمور الحياة.

كان أحلى ما فعلناه هو تذكّر أيام الصبا، حين كان الحب شاغلها. حبها الوحيد الذي رحل ونسي، وبقيت هي في تذكّر، فكل دواوين الشعر التي في مكتبتها تقرأ له، وكل قصيدة ولحن وأغنية تقال له، فتدغدغ مشاعري أجمل الصور، وأحلّق مع الجمال الذي نسيته في زحمة الحياة، وكنت أراقب تحرّكات سلمى ومشيتها بإعجاب، فتصبح أجمل وأنقى، وأتأكّد من أن السر الذي يكمن وراء صورتها الجميلة منبعث من مشاعرها الدفّاقة، التي لم تترك للزمن فرص العبث بها، أو الخطو فوق الوجه والعينين، أو إلى الجسد الفتي الذي يأبى الاستسلام للعمر ولقوى الزمن.

في هدوء القرية تراجعت أهم الأمور تعقيداً، واستغربت لماذا تعاملت مع ما يحدث في بيتي بهذه السريّة، وأصبح الحديث حول ما أقلقني نوعاً من التسلية والمزاح، ورحت أضفي عليه مزيداً من الخيال، ولم أنس شيئاً، ابنتي وزواجها، وظافر وأمه، ولعبة الدفلى. كانت أحاديث طويلة، لها نكهة المزاح. لم يأخذ الحديث طابع الجديّة، وبين الضحك والمزاح، لم ننس أن الأصوات تصدر في كل مكان. الخشب يصدر صوتاً. النوافذ. الأبواب. كل شيء له صوت، وهناك من يقول بأن لكل شيء روحاً. ابتداء من الحجر إلى الشجر إلى كل ما حولنا في الحياة، ورحنا نبحث في معلوماتنا المتفرّقة حول الإنسان القديم، وولعه باستكشاف الأسرار، وكيف راح يفكّر ويستنبط ويستنتج حوله كل ما في الطبيعة من أمور، فقد يتمتّع بقوة فراسة، أو يصبح عرّافاً، فكل إنسان قادر على التوصّل إلى مرتبة من المعرفة، بقدر إلهامه أو استنتاجاته، وتوقّفنا عند أولئك الذين يحاولون الاتصال بقوى غيبية، كالجن والأشباح أو الأرواح، وانتقلنا إلى الأديان التي وقفت في وجه الخوف، وأعادت الطمأنينة إلى البشر، ثم انتقلنا إلى الحسد والإصابة بالعين، أكّدناها ثم نفيناها، لنتحدّث في ضرورة القراءة والبخور، الذي تهرب من

www.alkottob.com

رائحته الطيّبة جميع الأرواح النجسة، حين قالت سلمى مؤكّدة بمزاح شديد:

-لا تنسي البخور في الصباح والمساء. إنها تبعد الشياطين.

ضحكت وقلت:

-إنها المرة الأولى التي أؤمن فيها بوجودهم، مع أن الأديان ذكرتهم واستعاذت بالله منهم، ففي المسيحية رفض يسوع التجربة من إبليس، وأخرج الشياطين من الممسوسين ورماهم في الخنازير، وحين يعمّد الأطفال يرفض الكاهن الشيطان، ويكرّرها (الشبين) وراءه عدّة مرّات (نعم أرفض الشيطان وكل أعماله).

-وفي الإسلام أيضاً، وقبل تلاوة بعض آيات من الذكر الحكيم، ألا يبتدئ القارئ بالاستعاذة من الشيطان الرجيم، ألم يقل سبحانه وتعالى في سورة (الأحقاف)؟ (وإذ صَرَفْنا إليكَ نَفَراً من الجِنّ يستمعون القرآن فلما حضروه قالوا أنصتوا فلما قُضِيَ ولّوا إلى قومهم منذرين).

-ما أجمل هذا البيان؟ وما أشد إيقاعه في النفس؟

-أجل! القرآن الكريم معجزة.

رحنا نستشهد بأكثر من آية، وتلونا أكثر من حديث شريف، وعدنا ثانية إلى سورة (الأحقاف) وقرأنا بعض آيات من سورة (الجن)، وتوصّلنا إلى أن الإنسان خلق من طين أو تراب، وخلق الجن من نور وهو المؤمن، ومن نار وهو الذي بقي كافراً، إلى أن قلت فجأة:

-معنى هذا أن بعض الجن قد دخل الإيمان قلبه؟

-وبعض آخر بقي كافراً!

-أرجو أن يكون ضيوفي من المؤمنين!

ضحكنا كثيراً، ورحنا نستعيد بعض الوجوه في هذا الزمن، وجوه تنافس الجن، متسلّطون أو مغتصبون أو منتهزون، لم ننس في تلك اللحظات الرجوع إلى ذكر الله، وقراءة التعاويذ والبسملة، لخزي كل ما هو بشع في الحياة، خاصة أولئك الذين يقاسموننا الحياة ونحن لا ندري.

شربنا القهوة، وضحكنا ونحن نقلب ما تبقّى منها، فتذكّرنا تميماً الذي كان يقرأ لنا الخطوط. قالت سلمى: (اخز تميماً يا أنت)، فغرقنا في الضحك.

لاحظت أن سلمى تتعامل مع الحياة بتلقائية وبساطة، وكأن ما يعترضها

www.alkottob.com

جزء من لعبة عليها تقبّلها كما أتت، فالحياة على قصرها لا تستحق هدر التفكير في أمور لا مجدية، وعلينا التعامل مع الصعب وكأن الزمن مرّ عليه وانتهى، لأنه سينتهي حتماً، ولا حاجة لاستهلاك قدراتنا أمام أمر هو إلى زوال.

أعجبتني سلمى أكثر، ربما لأنها أعطتني ما كنت أحتاج إليه من سلام، وحوّلت اهتماماتي لكل ما هو جميل، وربما لأنني اكتشفت مثابرتها على المطالعة، وبحثها عن المعرفة، فكوّنت ثقافتها المتفرقة والتي تبدو شاملة في بعض الأحيان، وأرجعت ذلك لتفرّغها الطويل، فلم تكن لتسأل عن أسباب الحياة، وكان يكفيها ما تركه والدها من إرث صغير، يقيها شرّ العوز والحاجة.

من خلال الهدوء الذي وجدت نفسي به، أخذت أتذكّر أيام الرحلة ومهرجان الأزياء، رويت لها التفاصيل التي غابت عن ذهني، وتلك المشاعر التي أصابتني، وحلمي بالنجاح والتميز، وذلك الثناء على عملي، وما عشته من بهجة بين الصحافة ووسائل الإعلام، واعتبرت نفسي في مصاف كبار المصمّمين. كان رأي سلمى بأن العمل والاستمرار يعنيان النجاح والتفوّق، وبالتالي يجعلان المرء شاباً، على عكس التقاعس والإحباط اللذين يعنيان العجز، والفشل الحقيقي. شعرت بأنني أدرك هذا، وكانت رغبتي في العودة إلى العمل والشوق إليه يتصاعدان كل يوم.

هذه الأيام الجميلة التي أيقظت الحب في نفسي، أعادت لي الشباب، ومدّتني باستطاعة لضم العالم إلى صدري. ابني الذي في الغربة. ابنتي وظافر. رافي وأخيه، وربما أختهما التي ستأتي، وكنت أجمع أشيائي وأغادر صديقتي الجميلة، التي قدّمت لي ودون أن تدري أهم الدروس في الحياة، وكنت أشتاق لبيتي وللعمل.

***

www.alkottob.com

لم يفارقني ذلك الشعور، وهو أن كل ما في البيت أصبح جديداً، فكل شيء يقول هذا. قبل ذهابي إلى القرية، وبعد عودتي منها. وجدت العاملة بانتظاري حسب الاتّفاق، وتخطّتني إلى الداخل. أسرعت تُعدُّ القهوة. كنت آنذاك أعبر الممشى المؤدي إلى المطبخ وكأنني أعود من غياب طويل. مررت على الغرف والشرفات، ثم غرفة الخياطة. كان كل ما في الغرفة يعاتبني. أحسست أن آلة الخياطة وبكرات الخيوط والرفوف، وبقايا الأقمشة تشابه عيني العاملة التي لم تستنفد صبرها حتى الآن، وكنت أندفع بشوق، لأهتف للمقرّبات إليّ، فقد عدت أخيراً للعمل، وتمّ الاتّفاق على المباشرة في صباح الغد.

كنت أشعر بالشوق لابنتي وابنيها، وكأنني قد غبت عنهم طويلاً. أسرعت الخطا وأنا أفكّر بكل منهم. وأحلم بلحظات معانقتهم، وأشغل نفسي بحوار معهم، فكيف أبتعد عنهم طويلاً، وأحاول التبرير أمامهم، وأدرك بيني وبين نفسي أنني انشغلت عنهم، لا رغبة مني إنما لأكثر من سبب. كنت بحاجة للراحة، وللهروب من أجواء البيت التي تضخّمت بسبب تلك الحاجة.

وجدت الجميع في أحسن حال، واطمأننت على حمل ابنتي المختلف عن سابقيه، لا عوارض وحم كما حدث مع رافي وأخيه. قلت ربما تكون بنتاً. تدخّل رافي محتجّاً، فهو يريد أخاً. أما الصغير فلا فارق عنده. كان يلعب بسيارة سباق صغيرة، ويرسل أصواتاً شبيهة بأصواتها، وقبل أن يأتي المساء غنّينا معاً أغنية (مالي شغل بالسوق) كان رافي يحب هذه الأغنية، وينسجم مع كل مفردة منها. ضممتهما إلى صدري طويلاً، وطالبتهما بالمجيئ، فوعدتني ابنتي التي أشار عليها زوجها قبل أيام بوجوب زيارتي، فقد شعر بالخجل لتقاعسه عن واجبه، خاصّة وأنه لم يزر ذلك البيت بعد خروجه الأخير.

في طريقي إلى البيت تابعت أغنية رافي، وشددت على المقطع الثاني (مرّيت أشوفك) وبقيت الكلمات عالقة في ذهني، إلى أن وصلت وأشعلت التلفاز، فشعرت بنعاس شديد. نهضت بتثاقل، واتّجهت إلى غرفة النوم. فكّرت بالمذياع، فقد

www.alkottob.com

تعوّدت الاستماع إلى ما يعزّز النعاس عندي، بحيث أغفو بنوم عميق حتى الصباح.

قطعت المسافة بين الصالون وغرف النوم. مررت قرب الغرفة الأولى، وصلت غرفتي. أحسست وكأن شيئاً ما كالنسمة يعبر ورائي، ثم صوت قرع على الباب. توقّفت. استدرت بتحفّز. كان كل شيء هادئاً. لكني سمعت القرع تماماً. أصابع ترتفع وتسقط بقوة على الباب الخشبي. أربع مرّات أو خمساً، وهدأ كل شيء.

دخلت الغرفة بوجل وذهول. أشعلت النور. جلست على حافة السرير. تذكّرت سلمى. خفت. هل تهدّ اللحظات ما بناه أسبوع؟ سحبت نفسي من التفكير. نهضت أرتدي ثياب النوم. تلك اللحظة وبطريقة مباغتة، سقط على الأرض وأمامي مباشرة شيء. استطعت تقدير وزنه الخفيف. يشبه غطاء زجاجة عطر. انحنيت أرفعه بذهول. سمعت الهاتف يضرب بقوّة. بقيت في مكاني. كان الخارج بالنسبة لي غولاً. التصقت بالسرير، بالوسادة. لم أتجاسر على التفكير. كيف قرع الباب ومن الذي قرعه؟ كيف سقط غطاء الزجاجة ومن الذي أسقطه؟ غرقت في تلك التساؤلات، وغفوت بعينين مفتوحتين، وحين انبلج الفجر وجدت النور مضاءً كما كان في المساء، وصوت المذياع عالياً. نهضت بتثاقل. سمعت المذيع يتلو النشرة الصباحية مردّداً: ((إن شنّ حرب على المواطنين العزّل، هو تأكيد على التمادي في العدوان)).

لم أنس خلال النهار ما حدث مساء، ولم أحاول التحدّث عنه، وانشغلت بتفصيل أكثر من قطعة قماش وتجهيزها للقياس. كانت العاملة منشرحة الصدر، أو كأنها لم تصدّق حتى الآن، بأن كل شيء قد عاد إلى سابق عهده. كان باستطاعتي تجاهل ما حدث، على اعتبار أن ذلك لن يتكرّر، هل كان هذا الاعتقاد هو الذي يدخلني في عالم الصمت؟ أم أن الطاقة المخزونة من تفاصيل أهم وأصعب قادرة على امتصاص الخوف وتحويله إلى عدم؟ أو أن وضعي الذي يجب المحافظة على توازنه أمام الجميع، والذي قد يؤثّر على عملي؟ أم أنني فكرت بمفاهيم أخرى فذلك لا يخلو من الترّهات، وهو يصيب الناس الضعفاء والمرضى والتافهين؟ فما الذين سأقوله؟ وعن أي شيء سأتحدّث؟ ومن الذي سيصدّق؟ هنالك ألف سبب يجلب الأصوات إلينا. الصوت يأتي من كل مكان فيبدو قريباً إلينا. الدود مثلاً ينخر في كل شيء، ويتحرّك في كل الأوقات،

www.alkottob.com

ويصدر أصواتاً تتجسّم في الصمت، وفي السكون والليل. كل شيء يتضخّم في العتمة، وفي الهدوء والفراغ، كالصدى والأماكن المفتوحة، والبيوت المهجورة. تدخل الروح في شيء ما. تعيد له الحياة. معادلة ما بين الموت والحياة. ما بين الوجود والعدم. حين تأتي النهايات تظهر البدايات. في كل ثانية تحدث ولادة ويحدث موت.

اقتنعت خلال النهار وأرجعت ما يحدث إلى الوحدة التي وجدت نفسي أحيا بها، وإلى رحيل الجميع عني وعن البيت الذي كان مأهولاً، وأن تلك الأحداث كانت موجودة وغابت في الزحمة، فلم يتسن لي إثباتها، لقد أصبح كل شيء مهجوراً، بعد أن غاب الزوج أوّلاً، ثم الابن فالابنة، فالأحفاد. وهذا ما دفعني إلى الصمت والتجاهل؟ وتوصّلت إلى قرار هام بالنسبة لي، وهو الاستسلام لما يحدث، قد يستمر ذلك وقد يتوقّف، فليحدث ما يحدث. تدقّ الأبواب أو تتساقط الأشياء. تقلب الصور أو تتهشّم، ما دمت أنام وأستيقظ وأتحرّك وأمارس عملي، كأن شيئاً لم يكن، أو أنه لا يحدث أبداً.

تغاضيت في أيام أخرى عمّا يحدث. تجاهلت الأصوات المنبعثة من الزوايا، من الغرف. الحمام. المطبخ. الصالون.. فأستمع إلى قرقعات تصدر من بعض الأمكنة، وأحياناً تتكرّر في أوقات مختلفة، وعلى الصورة نفسها، تحت المنضدة أو خلف المكتبة، وراء الباب أو قرب النافذة، وكأن قراري الأخير قبل أيام قد منحني الاستسلام، ومشاعر اللامبالاة. أصبحت أضحك في سرّي لكل أمر منها، أو كأنني توصّلت إلى حل في التعايش معها. فأترقّبها، وأنتظر تحرّكاتها، وأستغرب حين تتباعد. لكن! وفي أعماقي كان الوجل يكبر، أو كأنني كنت أنتظر لحظة التفجّر التي ستقلب الحياة وتضع النقاط على الحروف.

***

www.alkottob.com

www.alkottob.com

www.alkottob.com

لأول مرّة أكتشف القلق على وجه العاملة، فأخذت أراقب تحرّكاتها في البيت، كيف تتصرّف؟ أو كيف تتلقّى أمراً ما، وأحاول إصدار الأصوات من أماكن مختلفة، واستشفاف طريقتها في التلقّي، ولم يمض النهار إلى أن أيقنت، بأنها تلمّست ما يحدث، أو أن أمراً غريباً لفت انتباهها، واستغربت أنها لم تلمح أو تعبّر عن استغراب أو خوف. لم أكن راغبة بتأكيد ظنوني حين أشرت عليها بالبقاء والنوم، فبيتها خارج المدينة. ستوفّر الوقت ومشاق التنقل في "الباصات"، وتعمّدت زيادة الأجر رغبة في تشجيعها على البقاء، وكنت أصلّي كي تلبي طلبي. كان ذلك أكثر ما أتمناه بعد ليلتي السابقة والحافلة.

مازلت أتّكل على العاملة في ترتيب المواعيد، وهي التي تنبئني بتفاصيل النهار. كان هذا الصباح خاصّاً بـ (البروفات) وكأن جميع أولئك النسوة على اتّفاق، فقد غصّت الغرفة بهن، وكن يقسن أثوابهن تباعاً، بينما تدور الأحاديث بلا انقطاع. كان أهم التعليقات حول ما شاهدنه على إحدى الفضائيات، وكن يثرثرن بتحفّز واضح، بعضهن مستغرب وآخر يرى الأمر عادياً، وكنت منجذبة للاستماع والمشاركة، فحديث الأشباح والجن والأرواح يستهويني، تدخّلت أكثر من مرة، وبطريقة أستفزّهن فيها فربما استمعت إلى المزيد. انغمس الجميع في إبداء الرأي، ورحن يستعرضن آراء الجمهور المشارك، وآراء رجال الدين، وما قيل أو يقال حول وجود أولئك اللامرئيين، والذين قد يظهرون حسب المكانة التي هم بها، واتّفقن أخيراً على أنهم موجودون وليسوا بالموجودين. معنى هذا أن الإنسان لا يستطيع إنكار وجودهم، لأن قسماً من البشر يعترف بذلك، ولا يستطيع الاعتراف بهم، لأنه لا يستطيع أحد إثبات ذلك. كنت أنصت كي لا تفوتني كلمة، وتعلّقت بإحدى المقولات، وهي أنهم موجودون لكنهم لا يقتربون من الإنسان، ولا يتعاملون معه إلاّ إذا تعرّض لهم، بطريقة خاصّة جداً كالقراءة أو كتابة الطلاسم أو الاستدعاء عن طريق مختصّين، فلهم عالمهم الذي كان موجوداً قبل الإنسان، يوم كان آدم من الملائكة، وقيل لإبليس أن يسجد له لأنه قدّيس، فتمنّع إبليس ولذا دعي من الكافرين.

www.alkottob.com

أنا لم ولن أتعرّض لأحد منهم. فكّرت وأنا أغرس الدبوس في الثوب تحت إبط المرأة، فهل في هذا البيت أحد منهم؟ لا.. إذن ما الذي يحدث؟ تساؤلات لم أستطع الإجابة عليها منذ انتباهي الأول إلى الآن، ربما لما أشعره من مدّ وجزر. فأحياناً يدب الخوف فيّ، فأقسم أن أغيّر الكثير من حياتي. البيت والعمل، وفي وقت آخر أشعر بسخافة تفكيري، فما المخيف الذي علي توقعه؟ فأشعر بضعفي وأحاول أن أستمد القوة، إذ يتحتّم علي الابتعاد عن هذا التفكير. يجب ألاّ أفكر بشيء مطلقاً. لدي ما يلهيني. عملي وأحفادي الذين سيصبحون ثلاثة عمّا قريب. كنت أشحن نفسي بالقوّة ومجابهة الخوف، وأفكّر بوجود العاملة التي قرّرت المبيت عندي، حين نهضت النسوة واحدة إثر الأخرى، وخرجن تباعاً.

شعرت مساء وأنا أشاهد التلفاز بالطمأنينة. ربما لوجود العاملة، أو لأسباب تخصّ راحتي النفسية، كانت العاملة تروح وتجيئ، تحضر فاكهة أو زبيباً وتمراً، وكنت أتحرّك في البيت ببساطة. منذ زمن لم اشعر بحرية التنقّل. دخلت غرفة الخياطة. طالعتني الأثواب التي يجب أن تجهز خلال أيام. لم أشعر بالقلق، فالوقت كفيل بذلك.

لا أدري وأنا أذهب للنوم لماذا راودتني تلك الأفكار. ربما لتذكّري قصص الطفولة، أو ما كنت أسرده على ابنتي، أو ما نشاهده على التلفاز، أو ما يشاهده الآن رافي وأخوه. تلك القصص هل كانت من نسج الخيال؟ أم كان فيها من الواقع والحقيقة ما جعلها أقرب للتصديق؟ أم هل تستطيع مخيّلة الإنسان سرد كل تلك التفاصيل المشوّقة، إن لم يكن فيها شيء من الصحّة عبر تاريخ الإنسان الطويل؟

استلقيت في السرير وأدرت إبرة المذياع، ثم أغلقته. شعرت بالصمت يطغى على كل شيء. كانت العاملة تغلق غرفتها للتو، وكنت ما زلت في انتباه شديد. لماذا حل السكون؟ هل لوجود العاملة؟ أم لأنني قرّرت التمرّد؟ أطفأت النور وأغمضت عيني، وقبل أن أدير المذياع تذكّرت قصة (ساندريللا) فهل تحلم العاملة بساحرة تحملها لملاقاة الأمير، كما حدث لساندريللا؟ وترتدي أفضل ثوب وأجمل حذاء، وتقابل الأمير، ويحبّها الأمير، وينتهي الوقت، وتسرع كما أشارت الساحرة، ويسقط حذاؤها، ويصرّ الأمير على إحضار صاحبة الحذاء لتصبح زوجة له، ويختارها ويتزوجان؟

لم أستطع سحب نفسي من تلك الأحلام، وكأن السكون الذي حلّ بعد افتقاد طويل، قد أتاح لي فرصة التفكير والحلم، ولا أدري لماذا تذكّرت قصّة القزم

www.alkottob.com

(جدعان) ومساعدته للسجينة التي أمرها الملك بغزل أطنان من الصوف، وكان هذا شرطه الوحيد لفك أسرها، فيرتّب عليها حياكة جميع ماهو موجود في الغرفة من الأصواف، وربما يلزم من أجل إتمام ذلك سنوات طويلة. أما الملك فقد أمهلها من أجل ذلك أسبوعاً واحداً فقط. كانت خائفة كثيراً لعجزها عن إتمام هذه المهمة الصعبة، فكان جدعان يأتيها بعد أن ينام الحرّاس، ويعمل طوال الليل إلى أن أتمّ الشرط الكبير، ليدهش الملك وقد تحوّل الصوف خلال أسبوع إلى قطع مشغولة من ذهب برّاق، وهكذا فكّ أسر السجينة.

كما يحدث حين يمر يوم أو أكثر بهدوء وطمأنينة، أستمدّ الثقة ثانية، وأعتقد بأن ما كان لا يتعدّى المصادفة أو نسج الخيال، وأستطيع استعادة الحلم والسكينة معاً. لا أدري كيف أتتني تلك الفكرة؟ هل بسبب العاملة وساندريللا؟ أم لتداعي الأفكار؟ أم لأنني في الحقيقة أهوى الاسترسال في الخيال؟ أم لأن العمر الذي قضيته في مراحل حياتي الأولى، لم يرسّخ الخوف من حوادث معيّنة مهما تعاظم هذا الخوف؟ واستطعت تبسيطه بوصفه سراباً، كما يتراءى للمسافر عن بعد، ويكتشف في لحظات أنه لا يمتّ إلى الحقيقة. لكن! وببساطة! فإن كان ما يحدث حولي خلال أيام مضت جزءاً من الحقيقة، فهل من الممكن أن يأتيني جدعان هذا ويدخل غرفة الخياطة، ويعمل على مساعدتي فأرى الأثواب وقد جهزت دون تعب أو جهد؟ أضحكتني الفكرة وتيقّنت من مدى القوى التي أتمتّع بها. إنني بعيدة كل البعد عن الخوف الحقيقي، فلا شيء من حولي يستحق التفكير، وما حدث لم يكن آتياً من خارج نفسي، إنما كان من داخلها. ارتحت للفكرة. تنهدت وأخذت نفساً عميقاً وأنا أدير إبرة المذياع. أتاني صوت المذيع مردّداً (الانسحاب المؤقت يعطي ارتياحاً) وغفوت باطمئنان.

***

www.alkottob.com

www.alkottob.com

www.alkottob.com

لا أدري إن كنت غفوت أم لا؟ فقد تقلّبت كثيراً، وأرقت كثيراً. مررت على محطات المذياع واحدة إثر الأخرى. الشعر والموسيقى والأخبار، ثم اللقاءات والتضرعات. كنت مع ما تبثه تلك الإذاعات ولم أكن معها في آن، فقد كان سمعي يجول عبر البيت. أفكر بالنسمة والحركة. أحاول التأكد مما يجري، فهل كان الهواء يلعب في أرجاء المكان طوال الليل؟ أم أن شيئاً آخر هو الذي يحرك أبواب الغرف بإيقاع منتظم؟ ويطلق أزيزاً كأنه في جيئة وذهاب؟ هل هو الهواء الذي يفتح باب الخزانة على مصراعيه، ويغلقه مصدراً صوتاً يشبه لغماً ينفجر دون توقيت؟ كانت نظراتي مثبتة في اللاشيء، وجفناي مفتوحين على اتساعهما، وربما غفوت على تلك الصورة، فقد كان قلبي يخفق حتى الصباح، حين استيقظت على رائحة القهوة، تذكّرت العاملة وأيقنت من أن وجودها لم يحدّ من تلك الظواهر.

نهضت خفية أعاين أبواب البيت ونوافذه، لأرجع ما حدث ليلاً لأسباب تتعلق بالمنطق، ولأكتشف بأن جدران البيت وأبوابه ونوافذه محصنة ضد العواصف وتيارات الهواء، ولم أر ثقباً واحداً يسمح بعبور النسمة إلى الداخل، أو بإمكانية خلق ضجيج مهما ضؤل شأنه.

مع قدوم الصباح خفّت وطأة الخوف، كما يحدث دائماً، وجاءت الشمس مشرقة تزيح كابوس الليل. لم أنس الأرق الطويل، لكنني انهمكت بالعمل، على أمل أن ما حدث قد يكون آخر المطاف، مثلما كنت أعتقد إثر كل حدث، وانهمكت أيضاً بمجيئ ابنتي وأسرتها لقضاء النهار. كنت على موعد مع الفرح ومع رافي وأخيه، كان يوم عطلة عند ظافر، ولا مدرسة عند رافي، أو حضانة عند الصغير.

حضرت العاملة فجأة لتمثل بين يدي. لم أكن قد ناديتها. ارتبكت وعادت إلى

www.alkottob.com

عملها، وجاءت في وقت آخر تبحث عني على اعتقاد أنني في مكان آخر إثر حركة أو صوت. خجلت هذه المرة وأكّدت أن ذلك بسبب ارتطام وقع في الحمام، قد يكون مشطاً أو صابوناً. فلا ضرورة للقلق. غابت هي ودخلت أنا في دوامة الأسئلة من جديد، وتوصلت إلى قناعة، فما دامت العاملة لا تعير اهتماماً لهذه الأمور، ولا ترى من ضرورة للقلق، فهي ليست بالقلقة، فالخوف على ما يبدو عندي أنا، وعلي أن أحذو حذوها، وهذا يعود لي بالدرجة الأولى، ولقمع تهيؤاتي. شعرت بالراحة وكأنني أكتم أمراً خاصاً، ودخلت في الصمت، وكنت قد استطعت إخفاء معاناتي منذ انتقال ابنتي إلى بيتها، وكتم ما قضّ مضجعي، إذ خفت أكثر من مرة من اتّهامي بمرض التهيؤات، أو إرجاع ذلك لأنانيتي التي برزت إثر ابتعادها وابنيها عني.

كانت أكلة ابنتي المفضلة محشي الكوسا باللبن، أما ظافر فكانت أكلته محشي الباذنجان، في حين أن رافي وأخاه يحبان كل الأطعمة شرط أن يتناولاها وهما يشاهدان برامج الأطفال، فيجلسان متقاربين. يلتقطان اللقمة كعصفورين وكأنهما ينتظران من أمهما أن تلقّمهما الطعام، أو فلن يأكلا، وكأن الزغب الذي يكسو جسديهما لم يقو ويصبح ريشاً يؤهلهما للحركة والطيران.

نهض ظافر يغسل يديه، غير أنه توقف عند باب المطبخ، وراح يسأل ويتساءل عما حدث للبراد، الذي يبعد عن الجدار بضعة سنتيمترات. أسرعت كما فعلت ابنتي وكما لحق بنا ابناها، وكان يؤكد بأن شيئاً يشبه ضربة يد قوية، أو يشبه كرة قاسية اصطدمت وراء البراد ووقعت أرضاً، وحين عاد إلى مكانه كان مستغرباً جداً، لكنه تناسى ذلك وحدّثنا عن الجامعة والدراسة، وعن تفوقه بين الطلبة وحبه للمادة التي يدرسها، فلم يخطئ أن انتسب لكلية الزراعة، لقد أصبح خبيراً بالنباتات ومواطن زراعتها، وما يناسبها من مناخ وأجواء، ووعدني بتخصيص يوم للعناية بها، وبجميع الأصص الموزعة في الشرفة. خرج يلقي نظرة عليها، وعاد للحديث عن الأساتذة وعلاقته الجيدة معهم، ثم عاد لمشاهدة التلفاز.

خلال ساعة حدث أكثر من أمر، فقد وقعت إحدى القطع الأثرية على الأرض وتهشمت. حلّت الدهشة على الجميع، فقد كانت في منطقة عالية لا تطالها يد، وتكسر زجاج النافذة وكأنه رمي بحجر، أما ما حدث بعد ذلك فقد أرجعنا ذلك للمصادفة، ولم أستغرب من ظافر أو ابنتي تجاهلهما لما حدث، فهذا

www.alkottob.com

ما يحدث لي في كل مرة. أندهش قليلاً ثم أنسى وكأن شيئاً لم يحدث، وهذا ما أخذ يحدث للعاملة أيضاً، واستطعت تفسير ذلك بحوادث مشابهة تمر عبر عمر كل منا، فلا يكلفنا ذلك أكثر من لحظة وقوع الفعل ثم التجاهل أو النسيان.

دربت نفسي شيئاً فشيئاً على استقبال كل طارئ، وعلى التعود على كل ما ينم عن هذا البيت، إن حدث ذلك في الليل أو النهار. ما دام الجميع يمرون عليها مرور الكرام، لقد انتهت استغرابات الجميع، كما انتهت استغراباتي الأولى، وعلي تخطي كل أمر لا علاقة له بالواقع، وعدم التفكير بما ليس موجوداً، وعليّ التفكير بالحقائق كمجيئ ابني الذي اقترب موعده، ورحت أعد الأيام المتبقية، فوجئت أنها لا تتعدى الشهرين. طرأت على ذهني الأفكار. لم لا أزوجه وأفرح به؟ كانت هذه أهم فكرة خطرت لي، إذ ستبقى الزوجة بانتظاره، ريثما يعود في العام القادم حاملاً شهادته. سيحصل هذا وتعود للبيت حيويته والحياة. تعيش الحقائق وتختفي الأوهام.

سمعت في المساء أخباراً لها علاقة بأكثر من منطقة في العالم. كان قلبي يتفطر أسى، وكنت أبكي على رجال ونساء وأطفال يقاومون. يطالبون بأراضيهم وبيوتهم وبياراتهم، ويقتلون دون أن يتسنى لهم الدفاع، ويتّهمون. يصبح الضحية متجنياً والقاتل ضحية، هناك في عالم غاب عنه الحق. ترتفع يد تقسم بالشيطان، وتتغافل عن قتل الأطفال والأبرياء.

استطعت النوم بعد أن غسلت الدموع أحزاني، واستسلمت للأحلام الطيبة، ولا أدري ما حصل بعد ذلك، فقد استيقظت ليلاً. سمعت وقع أقدام تعبر الممشى، لم يكن صاحبها طويل القامة أو قصيرها. يروح ويجيء وبيده طابة من (البلاستيك)، فصوت ملامستها للأرض يوحي بذلك. كأنني أراها. طابة (بينبون) لا يتعدى حجمها قبضة اليد. خفيفة الوزن. ناعمة الملمس، وكأن حاملها يرغب بإقلاق الآخرين وتخويفهم. لكن ذلك لم يحصل، فقد كنت مسلحة بالإيمان. غطيت رأسي وغرقت في الضحك، فليحصل ما يحصل. تقرع الأبواب. تتساقط الأشياء. تهتز النوافذ. لا شيء سيهزني بعد الآن. سأنام وأنهض، أعمل وأتحرك، وليفعل غيري ما يشاء ما دمت لن أرى أو أسمع، سوى نبضات قلبي التي لا تعرف غير الحب، والأمل، والإيمان بحق الاستمرار والعيش الهنيئ.

www.alkottob.com

بعد قراري، شقّت إحدى الصور الجدارية إلى نصفين. ضربت رفوف المكتبة بسلسلة معدنية. ازدادت التحركات في البيت. مقاعد تتلاطم. أبواب تفتح. ستائر تهتز. نوافذ تغلق، أو ريح تصفر بغير أوان، وكان صوت المذيع في المساء محتداً وهو يردد (ما يجري يسبّب حالة من الغضب الشديد) لم أشعر بالغضب. شعرت بالدهشة، ولا أدري متى غفوت.

***

www.alkottob.com

تململت وأنا أصطنع التذمر وقلت للعاملة:

-كرهت العمل في هذا البيت. لا أرى شيئاً في مكانه. كأنه مسكون بالجان.

ارتبكت قليلاً، ثم تشجعت وقالت:

-ربما.

-هل هذا جواب؟

-قصدت قد يحصل هذا.

-كيف يحصل؟ هذا هراء.

لم تجب هذه المرة، لكني راقبتها بعد ذلك وأنا أفكر بأجوبتها الغريبة، فهل تخفي أكثر مما أعرف؟ فهي التي تتحرك في البيت، والمسؤولة عن الشاردة والواردة. ترتب الأسرّة. تنظف الأرض. النوافذ. الحمّام. تمسح الغبار. تهتم بالمطبخ. الصحون. الطناجر. الشرفات. كان عليّ استدراجها، والتوصل إلى ما تخفيه، فقد شعرت بأنها توصلت لأمور أهم مما أعرف بكثير.

حدّثتني في ساعة هدوء عن طفولتها البائسة، يوم عملت في بيت غني، تحكمه امرأة عجوز. هذه المرأة اعتقدت أن الجان يقاسمونها الحياة في البيت، فلا تترك العصا من يدها، تلوّح بها يميناً ويساراً. كانت لها طقوسها. تشعل البخور، وتقرأ التعاويذ، ولم تتعوّد على تلك الحياة أبداً، فتعيش الرعب باستمرار، وكان خوفها يرتد عليها وعلى إحدى العاملات، فتشبعهما ضرباً وعقوبات دون رحمة أو تبكيت ضمير.

قلت:

-هذه امرأة مهزوزة ومريضة. تعتقد بالأوهام.

-لم تكن أوهاماً.

-ماذا كانت إذن؟ وكيف عرفت؟

-كنا نشعر أيضاً ونسمع خلال النهار والليل أصواتاً غريبة.

www.alkottob.com

-كيف؟

تململت وهي تقول:

-أشياء لا تجلب الخوف. لقد تعودنا على ذلك، وكنا نستغرب إذا مر يوم بصمت. كنا نتسلى بالحديث عن ذلك في أوقات الفراغ.

-هل تعتقدين بالجان؟

-لا أدري. لكن يوجد شيء لا أعرف كيف يحصل.

بدت على بساطتها مستسلمة لكل فكرة، فتعمّدت سؤالها بطريقة بدت عابرة، قلت:

-هل تعتقدين أن هذه الأمور موجودة في كل بيت؟

-لا أدري!

شعرت بالغيظ، قلت بسخرية:

-هل موجودة في بيتكم؟ أو سمعت عنها في بيوت أقارب لكم؟

أجفلت. قالت:

-لا.

-لأنها أوهام. لا حقيقة لها أبداً.

ارتبكت. قالت:

-أقسم.. لم يكن وهماً! لكني لا أعرف له تفسيراً.

حاولت استدراجها في وقت آخر، ربما لخوف تسلّط عليّ، فهل ما يحدث لا يتعدى الأوهام التي تتسلط أحياناً نتيجة فراغ أو مشاعر وحدة أو إثر تعب عصبي أو عصاب؟ تعمّدت المزاح وأنا أشدد على السؤال قائلة:

-لقد جاء دورنا.

-بماذا؟

تعمّدت المزاح أكثر. قلت:

-أشعر وكأن أحداً يقيم معنا.

ضحكت. أجابت:

-ربما!

www.alkottob.com

–ماذا قلت؟

–قلت ليس مهماً هذا.

–كيف؟

–لا أدري! ربما لأنني عشت ذلك في طفولتي، وأيقنت أن ذلك لا يؤذي أبداً.

–أنت جادّة إذن.

ابتسمت وأشاحت وجهها وهي تردد ببساطة:

–هناك شيء يحدث ولا يخيفني.

–مثل ماذا؟

انخرطت في الحديث عن واقعة إثر أخرى. قرقعة في الزوايا. خشخشة. صورة مقلوبة. باب يقرع. نافذة تغلق. صنبور يفتح. أصوات بلاستيكية. سلسلة معدنية. لا أدري ما حصل بعد ذلك، فقد شعرت بدوار. سقطت فوق أقرب مقعد. أسرعت هي تتصل بابنتي، وخلال ذلك تجمع كل شيء في ذاكرتي دفعة واحدة. وحين رحل الطبيب لم يقل شيئاً، عدا ارتفاع في الضغط. وصف لي حبوباً إحداها مهدئة ورحل، لأستعيد جميع القصص التي سمعت عنها منذ الطفولة إلى الآن كان عليّ إخفاء توجّسي أمام الجميع، في وقت تأهّبت فيه لاستقطاب كل حركة في البيت. كان سمعي يتنقل عبر الأماكن كلاقط يحول النأمة والهمسة إلى تحركات مجهولة المصدر، وهاجمتني قصص حول أولئك الذين يظهرون ولا يظهرون. يتركون آثارهم ولا يتركون، يرون ولا يرون، وكان الخوف يشتد والقلق يشتد، وتحوّلت إلى ريشة في مهب ريح.

***

www.alkottob.com

www.alkottob.com

www.alkottob.com

لم يبق لي سوى تميم الذي هربت منه عشرات السنين. ألجأ إليه بخنوع، متجاهلة تهديدي له، وانكساري، لأسأله برجاء:

–ما الذي يحدث في بيتي يا تميم؟

استوى في مكانه بشكل جدّي، وبطريقة أقرب للعارف بمجريات الأمور، وراح يتحدث بالأسباب المتعددة، إحداها لعبة تحضير الأرواح، التي مارسها كثيرون، والتي كانت تباع الأوراق الخاصة بها في الأسواق الأمريكية، وربما بسبب التطفل كأن تفتح تعويذة كتبت من أجل الحب أو التبغيض، ولا يجوز فتحها أو قراءتها إلا عن طريق مختص، وربما بكتابة طلسم لغاية ما. في كل الأحوال هم موجودون، لا يؤذون أحداً. يعيشون في كل مكان. مساكنهم المفضلة قرب الأنهار والسواقي. أماكن الماء بشكل خاص. أما حين يقيمون في مسكن مأهول فلا بد من سبب لذلك.

راقبت كل حركة قام بها، وتذكرت ما كان يبدر عنه في الماضي، ولا أدري كيف صوّر لي غولاً بشعة. خفت منه وهممت بالهروب، تراجعت، فأنا جئت إليه راجية، آملة، وليس لي من معين غيره. قلت بخنوع:

–مثل ماذا يا تميم؟

أغمض عينيه بضع ثوان. نهض مشيراً إلى صدره. كان قلبه يخفق بطريقة مرعبة. اهتزت كتفاه. جحظت عيناه، ثم نهض واقفاً والعرق يتصبب من وجهه. قال:

–إنه في بيتك!

–من؟

–رجل. رأسه صغير. يرتدي سترة من البني الفاتح، وبنطالاً داكناً بعض الشيء، هو الذي أسقط التمثال، وقلب الصورة، ولعب بالطابة، وهزّ دفتي الباب. وفعل أشياء كثيرة.

www.alkottob.com

خفق قلبي. تذكّرت الرجل الذي غاب عن ذهني كثيراً، والذي لم أربط ما يحدث بظهوره بيننا، فقلت برعب:

–لم يا تميم؟ لم؟

–يقول بأنك قمت على تعذيبه، وسبّبت له وجعاً.

–أنا؟!

–هو يقول، ولست أنا.

شعرت بدوار. عرفت أن الضغط عندي قد ارتفع. استلقيت وأنا أغمض عيني. سمعت وقع خطوات تميم. وهو يطلب قطعة رصاص. أذابها فوق شعلة من نار. غطى رأسي بقطعة قماش، ثم سكب السائل المذاب في كأس من الماء فوق رأسي، وأخذ يردد كلمات لم أفهمها. أردت النهوض وإيقافه، لم أفلح. كان جسدي ثقيلاً، وكنت في أعماقي أردد الصلاة، حين شعرت بالراحة كان ما زال يعدد مزايا المعادن التي يحتاج إليها الجسم، واكتشاف مدى تأثير المعدن المذاب، وهو الذي استعمل قبل طوفان نوح من قبل القدماء، وكان أهمهم أحد الملوك السومريين.

بقيت صامتة بضع دقائق، وكنت أفكر بذلك الرجل، لماذا لم يخطر على ذهني مطلقاً؟ ولماذا نسيته وتجاهلته طويلاً؟ لماذا لم أتساءل كيف غاب؟ أو ما الذي تبدل؟ فإن كان خداع نظر فما زال كل شيء على ما كان عليه؟! أنا والمقعد الذي يتراءى منه. البيت بأنواره، بستائره ومقاعده وأشيائه. لكن! لماذا غاب طويلاً؟ لماذا بقي متخفياً؟ لماذا لم يعد يظهر؟ ولماذا بدل من أسلوبه؟ لماذا قرر العودة بطريقة أخرى؟ طريقة تحمل الخوف والرعب؟ وهل حقاً هو الذي يفعل كل ذلك في البيت؟ وخلال ثوان تحول تميم إلى رجل ذي شأن، يعرف الخفايا وربما يعرف الكثير مما لا أعرفه! أليس هو الذي سألني مرة عن حالة التسمم التي أصابتني ليلاً؟ وسألني في مرة أخرى إن شعرت بتوعك فجائي؟ ثم! لماذا تسلط علي تلك الفترة؟ هل يكون تميم سبب وجود الجن في بيتي؟ ولم لا؟ وهو الذي أتى بحجة العطش مرة، ورمى أمامي عقب سيكارة في مرة أخرى، وقال إنه سرقها مني ليقيم عليها تجاربه؟ ألم يقل ذلك اليوم بأنه لم يأت هو، إنما شبيهه ودعاه بالقرين؟ في كل الأحوال شعرت بأنني أمام خيار واحد، وهو الاستسلام للمصير الذي سيرسمه لي، واضعة في الحسبان كل احتمال، فقد يستيقظ عنده الجانب الإنساني ويعمل على مساعدتي.

www.alkottob.com

قلت بتوسل:

–انصحني يا تميم. ليس لي أحد ألجأ إليه. كيف سأبعد ذلك الرجل؟

–ولماذا تبعدينه؟ هو لا يريد ذلك. يريد التعايش بسلام.

–لا أريده يا تميم. إنه متطفل ومؤذ.

تململ تميم وراح يحدثني عما يعانيه هذا الرجل، فخارج البيت لـه كل العالم، ويستطيع التحرك في أرجاء الكون. أما عندي فهو مقيد بين الجدران، ومع هذا يفضل أن يكون له المأوى والمسكن.

–في بيتي يا تميم؟ خذه أنت إذن!

ضحك تميم من أعماقه، قال:

–لا أدري سبباً للخوف، باستطاعتك التعايش معه.

–لا. فليرحل. افعل شيئاً أرجوك.

–سأحاول. لكن! قد لا أفلح، فليس باستطاعتي ذلك.

–ومن يستطيع إذن؟

–الذي أحضره.

–ومن أحضره؟

–لا أدري. صدقيني لا أدري.

لم أصدق تميماً، غير أن عقلي أمرني بالتريث، فقد أكسب ثقته فيعمل على مساعدتي، كان قد انتشل قطعة الرصاص من الماء، بشكلها الجديد الذي يشبه عيناً بحدقة منفرجة، ونصحني بأن أرميها بكل قوة إلى الماء. نهر أو بحر. قلت برجاء:

–هل سيرحل بعدها؟

–قد يرحل وقد تطول إقامته. وأنصحك أن تطالبيه بالرحيل وتعطيه مهلة أيام ثلاثة، فإن رحل كان مؤمناً، أو..

–أو ماذا يا تميم وما الذي تعنيه؟ قل!

–عليك التأقلم، ريثما يحدث ما يبدل الأحوال، وعليك أيضاً تحاشي الحديث إليه، كي لا يعتاد على أحاديثك معه.

–أنت مجنون يا تميم!

www.alkottob.com

تململ وأخذ يحدثني عن إحدى الجنيات التي عشقت شاباً، وكان هو يحب فتاة من جنسه، فرفض الانصياع إلى رغبات تلك، وإلى إصرارها على ممارسة الجنس معه، فكان يخاف اقتراب الليل، خوف أن تأتيه وتعذبه كما تفعل. تسحب فراشه. تقلب سريره، لكنه أصر على الرفض وعلى عدم الاستسلام، وحين أراد الارتباط بفتاته هددته، ثم قتلته. كان عائداً إلى بيته مساء حين اصطدمت سيارته بسيارة شحن. مات على إثرها.

لم أرتح لتميم فهل أخطأت بلجوئي إليه؟ هل هو الذي سيعيد الراحة والطمأنينة إلى نفسي؟ أم أنه القوة الوحيدة التي تعادل ما يحدث حولي، والتي قد تدرك أبعاد كل خطوة؟ غادرته بخوف، لم تنفع نصائحه. على عكس ذلك، فقد صوّر لي الوضع بطريقة مرعبة، ولم يبق أمامي سوى الأمل الأخير، وهو رمي قطعة المعدن في المياه، وكنت أقنع نفسي بأن اللقاء معه قد يكون مثمراً، في كل الأحوال كان تميم الملجأ والبديل، خاصة وأن حالة من الخوف الداخلي تترافق مع ارتباك كبير في تصرفاتي، فيجب وضع حل سريع، فما الذي ستقوله ابنتي أو ابني أو صهري؟ أو كيف ستنظر إلي أم ظافر أو غيرها؟ وهل سيساندني أحد؟ وكيف سيتلقى رافي وأخوه نظرات الشك التي سأرشق بها؟

ولم تنته التساؤلات، وكنت أستعيد آخر ما كان يردده المذيع (التحرك الخارجي يوجه رسالة، فهل تكون الراعية للسلام؟)

تراءى لي تميم وكأنه صورة متحركة حولي، أو أنه عالم بما يجري، فاستسلمت للآتي مضطرة، ورحت أحلم بحدث ما، بانتفاضة، وكنت أنطلق نحو البحر.

***

www.alkottob.com

في طريقي إلى البحر كنت أستعيد الذكرى، يوم ظهر الرجل لأول مرة. تذكرته تماماً بلباسه وحركته وشكله، فكيف فاتني أنه لم يكن وهماً أو خيالاً. لم يكن خداع بصر. كان كائناً ينام ويتحرك بيننا. أنا وابنتي وزوجها وابنيها. هو من قلب الصورة أول مرة. هو من قفز ورائي. هو من أسقط لعبة حفيدي. من قرع الباب. من ضرب السلسلة. من أسقط غطاء العطر. من لعب بالطابة. هو هو، وكنت أتجه نحو البحر وبيدي قطعة الرصاص المطفأة. رفعت يدي بكل ما أوتيت من عزم، وكما قال تميم لوّحت بقطعة المعدن طويلاً، ثم قذفتها على قدر استطاعتي وأنا أردّد: بالسلامة يا أنت.

كان الوقت مساء، والظلمة تكاد تعم كل شيء. رحت أخب فوق الرصيف باتجاه بيتي العالي. أفكر بكل كلمة قالها تميم، بالتعاويذ التي سأرددها، بالنصائح التي أهمها إقامة الصلاة، وإشعال البخور، فهم يكرهون الروائح الطيبة، خاصة البخور وبعض أعواد الند، وعلي الانتباه في الحمام وحين الاغتسال، فهم يقيمون في أماكن المياه، ويجب الصلاة باستمرار، ودون تردد، فهم أيضاً يخافون من ذكر الله.

لأول مرة أشعر بأن المسافة إلى البيت قريبة جداً، وأن الدرج أقصر مما كنت أتصور. وجدت نفسي أمام الباب، لأول مرة أيضاً ومنذ أن سكنت في هذا البيت، أشعر بحاجز بيني وبين الدخول إليه، فكيف سأعبر الباب وإلى أين؟ وكيف سأمر من تلك المنطقة ما بين الممشى وغرفة الصالون؟ قرب المكتبة أو غرفة عملي؟ عند المطبخ أو غرف النوم؟ وفي كل نقطة من هذا البيت حدث ما لم أعره انتباهاً في السابق. لكنه الآن يهجم علي وعلى ذاكرتي، لتصبح ساحات البيت مسرحاً لأعمال مخيفة، ويهيمن الرعب في أكثر أرجاء البيت.

وقفت أمام المدخل، وفي اللحظة التي حملت المفتاح بيدي خفت، وبسرعة وجدت نفسي أهبط الدرج. كان قلبي يخفق بشدة، كان من المستحيل الدخول إلى البيت، ومن المستحيل الحياة فيه، بعد يقيني من أن ذلك الرجل هو الذي كان

www.alkottob.com

يعبث بالبيت، ويقلق راحتي.

هناك عند مدخل البناية، التقيت بإحدى الجارات. سألتها بطريقة فجائية إن كانت تصعد معي إلى البيت لأمر هام. تداركت الأمر حين اندهشت، وأكدت لها بضرورة اطّلاعها على آخر تصميم لي، لكنها اعتذرت لأسباب خاصة، ووعدتني بزيارة صباحية في الغد.

عدت ثانية إلى الصعود، ورحت أقرع الباب طويلاً، مع علمي بأن لا أحد في البيت، وأن موعد العاملة التي ذهبت لزيارة إسرتها لم يحن، ثم أدرت المفتاح وأنا أتمهل متيحة لمن يريد الهروب أو التخفي الفرص، وحين وضعت قدمي في أول الممشى، تلوت ما أشار علي به تميم من تعاويذ. كان الرعب قد أخذني بقسوة. اتجهت نحو غرفة الخياطة. أغلقت الباب ورائي. تلك اللحظة وقبل البدء بأية حركة. أجفلني صوت معدني قاس وقد سقط بقوة على الأرض، وراء الباب مباشرة، وكان قد تراءت لي صورته. خنجر فضي مدبب الأطراف، وكان قلبي يرتجف، وجسدي يرتجف. التصقت بآلة الخياطة وقررت المكوث إلى حين مجيئ العاملة، دون التفكير بما مر أو يمر، ودون استعادة ما قاله تميم، أو التفكير به.

لم تأت العاملة حتى الصباح، فقد بقيت على مقعدي، وحين أجفلت كان الباب يقرع. نهضت لأرى العاملة وبيدها باقة نرجس، تفوح بعبيرها الأخّاذ. شعرت بالطمأنينة وقررت النوم بسلام بين دهشة العاملة التي انصرفت لعملها.

استيقظت أنا وأفكاري معاً، فكيف لم أفطن لتلك القصة التي حدثني بها تميم؟ تلك التي عشقت الشاب وهددته بالموت؟ وكيف اضطر أخيراً لتلبية رغبتها بممارسة الجنس معه؟ لماذا أرعبتني تلك الحادثة؟ لماذا أيقظت الخوف والقلق؟ انتفضت وكأن يداً قوية تأخذني بشدة وتدفعني إلى الخارج، فقد تذكرت كيف استيقظت أكثر من مرة، وقد فكّت أزرار ثوب نومي، وعزوت ذلك لتذمري من الحر الشديد الذي كنت أشعر به ليلاً، فهل حاول ذلك الرجل اغتصابي ولم أكن أدري؟

لم أعمل شيئاً خلال اليوم، فقد بقيت كلمات المذيع ترن في أذني (الاعتداء المتواصل يعدّ انتهاكاً واغتصاباً لحق المواطنين) فبقي تفكيري منحصراً بحالتي التي أنا عليها، وباستحالة إيجاد حل لهذه الحالة، فكيف يكون الحل لما أنا فيه؟ وكيف أتصرف؟ وما الذي سأفعله أو أقوله؟ كان كل ما في البيت قد تحول إلى غول لاحقني. كل الأمكنة لها أكثر من ذكرى. هنا وهنا وهناك. أين سأذهب؟

www.alkottob.com

إلى ابنتي؟ وما الذي سأقوله أو أبرّره؟ اشتقت إليهم؟! وعملي في البيت، والأثواب المتراكمة؟ لماذا لا يأتي ابني؟ لماذا لا أذهب إليه لكن! من يعيلنا هناك؟ سأبيع البيت. لم لا أبيعه؟ وهل هناك من يشتريه؟ لم لا؟ لا أحد يعلم شيئاً عنه. يجب ذلك. يجب.

سرت على غير هدى. وصلت بيت ابنتي. لا أدري لم تجاهلت ما أنا فيه. لاعبت رافي وأخاه. اطمأننت على صحة ابنتي وصحة الجنين، وطرحت فكرة بيع البيت الذي أسكنه والذي يبدو أكبر مما يلزم. لم تعلق ابنتي وأشارت أن هذا شيء يخصني، وأنها ستساعدني في البحث عن بيت، يكون أصغر وأقرب إليها. لم أستطع أن أبحث في السبب المباشر، وبالتالي لم أقو على مصارحتها بما يعتمل في نفسي، فقد شعرت بالخجل من أمر له علاقة بالغيبيات، خاصة وأنني في عمر قد يجلب لي الاتّهام، ويجب الانتباه إلى كل حرف أو كلمة أقولها. حضر ظافر الذي بدا منشرح الصدر. لاعب ابنيه، ثم غاب في غرفته. علقت ابنتي على تفرغه للدراسة وعلى تفوقه الذي بدا واضحاً، وعن فرصتها التي لم تأت حتى الآن، فحين يكبر أبناؤها ستعود لمتابعة ما فاتها من تحصيل للعلم.

***

www.alkottob.com

www.alkottob.com

www.alkottob.com

أصبح البيت لا يطاق. عفت العمل والخياطة، وانهمكت بإشعال الجمر وإحراق البخور، فأدرس كل موقع قبل النوم، أدرس ثياب النوم جيداً. أردد الصلاة والتعاويذ. ألاحظ مراقبة العاملة لي، فأطالبها بمشاركتي، فذلك يبعد الشر والشيطان، فتنهمك بصدق، وأتذكر حديثها عن المرأة العجوز واعتقادها بوجود الجن في بيتها، فأشفق عليها، وكأنني تحولت إلى امرأة تشابهها، فأتأثر مما حل بي، ولا أفتأ أتساءل كيف حدث ذلك؟ ولم حدث؟ ولا أصل لإجابة. كل ما وصلت إليه أنني في عالم غريب لا يمت إلي بصلة، وأنني امرأة لست في مكانها، وأنني أقترب من مرض عصابي أخذ يتسلل إلى نفسي، ولا أدرك كيف أردعه أو أقف في وجهه، وكنت قد طلبت من العاملة المبيت معي في الغرفة، واعتبرت أن هذا تكريم لها، وكنت أعلم أنها في قرارة نفسها تدرك مدى الخوف الذي أنا فيه، وكأنها قررت عدم التطرق إلى ما يشغلني، فتستلقي بصمت، وأشغل نفسي بالمذياع الذي لم يعد يستهويني منه سوى الاستماع إلى نشرات الأخبار على التوالي، تحدث المذيع مرة عن (خوف من امتداد الاحتلال وتوسعه)، ومرة عن (محاولة لاقتحام بعض المناطق الآمنة)، ومرة عن (مواقف خارجية لوقف العدوان)، ومرة عن (السلطة القادرة على الوقوف في مواجهة العنف)، ومرة عن (الأمن ضرورة وحاجة للمواطنين العزّل)، ومرة عن (العنف هو ردة فعل على العنف).

وأستيقظ صباحاً على رائحة القهوة المطعّمة بالهال. أنهض بوجل. أردد ما حفظته عن تميم من صلاة وتعاويذ، وأصدر أصواتاً وأنا أخطو، أتأفف أو أغني، وأمر في أماكن أرهبتني في السابق وأنا أكرر كل كلمة أو حرف له علاقة بالاستعاذة، ثم أشعل البخور، وأملأ البيت برائحته الطيبة. الغرف. الصالون. المطبخ والزوايا والشرفات، وأهرع إلى غرفة عملي التي قلّت الحركة فيها، وكثرت الخيبات، خاصة على وجه العاملة التي كانت تحضر القهوة باستياء، فأجلس وأحتسيها بصمت.

كان هذا أكثر ما أستطيع فعله، فقد هزلت واصفرّ وجهي، وعشت التحسر على أيام كانت أجمل ما في حياة أسرتي الجميلة، وما في حياتي أيضاً، لاحظ

www.alkottob.com

جميع من حولي ما إلت إليه، وأرجعوا ذلك للوحدة التي وقعت بها بعد سفر ابني وانتقال ابنتي وأسرتها، أما من يعرف تلك العلاقة مع حفيديّ، خاصة رافي، يدرك وقوعي الكبير في الفراغ، ويدرك أيضاً أنه لم يعد للنوم طعم، أو للاستيقاظ الذي كان يزينه وجه الصغيرين، ووقفة رافي يحيّي العلم، أو يستمع إلى فيروز ويدهش من حفظي للكلمات، وربما سيدري في يوم أن ذلك كان أجمل ما في حياتي، تلك الأيام التي لن تتكرر، والتي قلبت برحيلها كل أيامي رأساً على عقب.

في الاجتماع الشهري مع النسوة استمعت إلى أكثر من تعليق، اكثر الأحاديث حول التبدل الذي طرأ على حياتي، خاصة إنتاجي في العمل الذي تضاءل بشكل واضح، فقد خفّت رغبتي في التجديد، وفي السعي لإبداع يتعلق بالتصاميم التي تميزت بها. كنا نقارب العشرين امرأة، وقد بدا الحبور على الجميع عداي، وحين تشعبت الأحاديث بين جد ومزاح، وضحك وبهجة، أصابتني الغيرة، فليس منهن من تعيش القلق الذي يعشّش بي، أو تعيش الترقّب من رعب آت، أو اقتراب خوف لا توقيت له، أو ما يقضّ مضجعها بمشاعر هي أقرب للتوتر والانتظار، ولا أدري إن كان باستطاعتي نسيان ذلك، وكنت أتساءل مع مرور الثواني، هل دخلت إحداهن في ظرف مشابه وتخلّصت منه؟ وهل إن حدث فكم يلزمها لتنسى وتعود للحياة من جديد؟ بالنسبة لي كان ذلك أمراً مرعباً، ويترتّب علي من أجل النسيان مزيد من الثقة التي أكاد أفقدها، في البيت الذي عشت فيه عشرات السنين.

حدث هذا خلال أسبوع من لقائي مع تميم، أسبوع بدا وكأنه عشرات الأسابيع، أنام بخوف وأستيقظ برهبة، وأحاول قدر المستطاع الهروب من البيت إلى أماكن أخرى. عند ابنتي أو جارتي أو صديقتي، أو أذهب إلى البحر وأدخن (النرجيلة) التي لم أستسغ طعمها في بداية الأمر، غير أنني تعاطيتها بعد ذلك أكثر من مرة. أما العاملة التي تخرج من البيت ساعة خروجي، ونتّفق على ساعة العودة، فلم تكن لتظهر مخاوف، وأرجعت هذا لطفولتها التي قضتها في بيت تلك المرأة العجوز، فتراقبها مع زميلتها للتسلية، وكشف ضعف الإنسان حين يواجه أمراً غريباً، أما هي فكانت تصبّ عليهما جام خوفها بالضرب أو التقريع أو كليهما.

***

دخل ظافر على عجل، وكنت أستقبل سيدة من زبونات الخياطة. استغربت

www.alkottob.com

مجيئه في البداية ثم خفت، إذ كانت المرة الأولى التي يزورني فيها بمفرده. كان على عجل. يحمل أوراقاً من صفحات ثلاث، ويحاول شدّي للاستماع إلى كل كلمة سيقرؤها، فأشرت عليه بالتروّي، لم يشأ ذلك أو تجاهله، مشيراً إلى أن ما بين يديه هو قرار وزاري، صادر عن الهيئة العامة لشؤون البيئة، وقد توصل إليه عن طريق أحد الأساتذة في كلية الزراعة، وجاء فيه بأن الدراسات والمعطيات العلمية والتجريبية، تشير إلى أن نبات الدفلى المستخدم حالياً في المناطق الرطبة والجافة في البلد، هو من النباتات السامة جداً، وتشكّل خطراً على بعض أنواع الماشية، التي سجلت عديداً من حالات تسمم، وهذا يعني أن لها تأثيرات قريبة وبعيدة المدى على الإنسان أيضاً، فيرجى التوجه للتخلص من هذا النبات، وعدم استخدامه إطلاقاً في عمليات التشجير. خاصة بالقرب من التجمعات السكنية، وجاء في القرار أيضاً تفاصيل أخرى ختمت باستعراض لنباتات غريبة تكون البديلة عن شجرة الدفلى المذكورة.

كان قلبي ما زال يخفق مذ ذكرت الشجرة، أو أنني ربطت تذكّرها بما فعلته مع ظافر يوم كتبت على أوراقها ذلك الطلسم، وبظافر الذي ينقل لي الخبر، ومرت خلال ثوان ذكرياتي معها، يوم كنت عائدة من السوق برفقة رافي، ومررنا قرب (فيللا) شدياق وكنا ننشد (هالصيصان) و(جمل ماشي) ووجدت أغصان شجرة الدفلى تتدلى بإغراء، فتذكرت كتاب (الرحمة في الطب والحكمة) وقطفت أربع أوراق كما تقول الوصفة، وعدت إلى البيت لأتابع العملية.

طوى صهري الأوراق وقدّم النصيحة الفورية برمي شجيرة الدفلى خارجاً، وكنت ما زلت في تذكّر، يوم قطفت غصناً ووضعته في الماء. يوم نبتت له جذور، فأصبح شجيرة صغيرة، زرعتها في أصيص. وفي يوم أردت فيه قلعها فاستعصت. كانت أقوى مما أتصور، فقد طويت جذعها وأدرته يميناً ويساراً، وفي حركة دائرية فلم أفلح. قصصت من أوراقها. حاولت ثانية وثالثة. رفعتها وأعدتها بعصبية وأنا أطالب العاملة بإتمام المهمة ونزع الشجرة في وقت لاحق ورميها مع القمامة، فنسيت هي وتقاعست أنا.

عاد ظافر يتابع قراءة البلاغ، وما جاء فيه من أمور أخرى. عدد مواقع الدفلى في المنطقة. الجبال الساحلية. الأودية السيلية، وقد يجمع النحل غبار طلعها السام، في حال عدم توفّر الغذاء له، كما أنها تعدّ من النباتات العائلة للحشرات القشرية التي تضر بالمحاصيل الزراعية، وفي اللحظة التي تناءى فيها

www.alkottob.com

صوت المذيع منوهاً بأن (البيان الصادر يؤكد أن أي اعتداء على المنطقة هو اعتداء على الجوار)، كان ظافر ينهض باحثاً عن الأمان والحماية للجميع. خاصة رافي وأخاه وأختهما القادمة خلال أيام.

كانت السيدة في دهشة. سألت بطريقة لا تخلو من الريبة قائلة:

–هل لديك منها؟

–أجل إنها في الشرفة.

–لماذا؟ ومن أحضرها؟

–هل يهم هذا؟

–لا يهم. إنما. يقال!

–وماذا يقال؟ هل من أمر؟

–يقال إنها شجرة مسكونة بالجن.

خفق قلبي. تذكّرت كل شيء، وبسرعة تفوق البصر مر شريط من الأحداث. ناديت العاملة قائلة:

–أخرجيها كما هي. ارميها في الشارع.

لم أنم تلك الليلة، وكنت أستعيد ذكرى ولادة الفكرة، حين اعتبرت نفسي أكثر إبداعاً من مؤلف (الرحمة في الطب والحكمة) فنقلت ذلك الطلسم بكامله على الورق، وهو ما زال عالقاً في غصن على الشجرة قبل أن أقطفه، فهل كان الخطأ هنا؟ هل كان سبباً لما جرى وما يجري؟ هل سجل ذلك اليوم ولادة الرجل ذي الرأس الصغير والسترة البنية والبنطال الداكن؟ وهل ما أشار إليه تميم حين شكوت له ما يحدث في البيت، من أن الرجل يردّ على تعذيبي له، فقام على إزعاجي؟ وكيف عذبته إذن؟ إنها الشجرة! الشجرة التي أردت قلعها بأن طويت جذعها، وأخذته في حركة دائرية وبكل ما أوتيت من عزم فاستعصت. إنه يسكن الشجرة، أو سكنها حين نقلت الكتابة إليها. لم أفرغ من التفكير حتى عادت العاملة فارغة اليدين، وكنت أثناء ذلك أفكر بما سيحدث من جديد، وأنتظر النتائج، فربما!

لم يتسن لي دراسة ما يحصل أو إرجاع النتائج وربطها بحدث ما، فقد توالت الأحداث بأسرع مما أتصوّر، فقد مات تميم عصر ذلك اليوم، وجاء الرد السريع على القرار الوزاري المتعلّق بشجرة الدفلى، والذي بدأ بالرد الصريح والعاجل، وبتواقيع بعض الأساتذة المختصين بالبيئة النباتية وقسم الحراج والغابات

www.alkottob.com

والمراعي، فلم يثبت عبر تاريخ المنطقة ما يسيئ إلى هذه الشجرة الطيبة، فهي نبتة متواضعة ودائمة الخضرة، ولم تكن في يوم عدوانية أو شيطانية، ولا يجوز الاستعاضة عنها بنبتات غريبة، فأولئك الأساتذة يعتقدون (أن زيوان البلد ولا حنطة جلب) إلى جانب ما هو أكثر أهمية، فالدفلى تطرد النحل والحشرات لمذاقها المر، وهي لا تعطي رحيقاً "لانعدام أزهارها من الغدد الرحيقية" التي تجذب النحل وغيره، ثم أليس للسموم من فائدة؟ ألا يستعمل قليله في تركيب بعض الأدوية؟ وفي العلاجات الطبيّة؟ أليست الأفعى هي رمز الشفاء والدواء؟ وفي الأخير يربط أولئك الأساتذة القرار الوزاري بالتساؤلات منها، هل إن العولمة التي تطرق أبوابنا يومياً، يمكنها اختراق حياتنا من خلال أشجار الدفلى أيضاً؟ وينتهي الرد بالمطالبة بإعطاء شجرة الدفلى هذه فرص "المحاكمة العادلة، بحيث سيطلق سراحها لبراءتها مما نسب إليها من جرائم."

أتاني يقين بأن القرار الأول لم يأت عبثاً، فلا بد أن التجربة أدانت الشجرة في المرة الأولى، أما الرد عليه، فقد كان باستطاعتي التذكر حين كنت أمر قرب (فيللا) شدياق وأراها تتدلى بعذوبة لافتة، وقد جمّلت الحديقة، فأراها بعين مختلفة، وأتذكر للحال أحاديث أولئك النسوة، حول ما جاء على إحدى الفضائيات، من أحاديث عن الأشباح والأرواح والجن، وانتهى الحديث بعدم نفي وجودهم لأن بعض الناس يعتقدون به، ولا يستطيعون تأكيده إذ لا يوجد إثبات على ذلك، وكانت قناعتي تكبر ما بين وجودهم وعدمه، ما بين الاعتراف بهم أو الرفض لوجودهم.

***

www.alkottob.com

www.alkottob.com

كم جميل أن ينام المرء ملء جفونه؟ غفوت تلك الليلة بعمق. كان السكون والهدوء يخيمان على كل شيء. وحين استيقظت في الصباح تذكرت أحلامي الجميلة، التي حملت لي بشارة رحيل الغرباء، أولئك الذين يتسلطوا على حياتي، وقضّوا مضجعي، وكأنهم يحملونني على الهروب أو مغادرة بيني وبين عالمي، فهل كانت أهدافهم ستتحقق لو لم نتوصل إلى معرفة أسباب وجودهم، واقتلاعهم من الجذور؟ كم انظر بامتنان لذلك الجدل الذي أزاح الغشاوة عن عيني، لأصل في لحظة إلى الحقيقة، وأدرك أن رحيلهم لا يأتي إلا بطريقة واحدة، وهي كشف أسرارهم وغموضهم، ومجابهتهم، فلا بد من الوصول إلى الطمأنينة التي أعيشها الآن، والتي تحققت بعد سنوات ما بين خوف وإقدام، ومدّ وجزر.

خلال أيام أتى لرافي وأخيه أخت، كان قلبي يخفق وأنا أستمد شعور الاستمرار في الحياة، فوق أرضي وفي بيتي، وكأن الزمن يمنحني الثقة من جديد، ويدفعني لمعانقة ما تحمله الأيام القادمة من حب وحنان، لأخطو بأمل مع الصغار الذين سيكبرون ويتندرون بأحاديث جدتهم التي أضحت من الذكريات.

كم ستحدث أمور خلال ذلك؟ قد يتخرج ظافر من كلية الزراعة، وقد يصبح أستاذاً هاماً. قد تتابع ابنتي دراستها وقد لا تفعل، لكنها ستبقى أجمل الأمهات. غير أن ما سيحدث حتماً هو عودة ابني حاملاً شهادته، وسيعمل ويتزوج وينجب، ونتابع الطريق.

فاجأتني العاملة بالقهوة الصباحية، ابتسمت، فكرت أنها ستغادرني في يوم ما. لم أشأ الملاحظة حول ذلك. كنت أفكر بأشياء أخرى، كبعض عاداتي التي تمسكت بها في الماضي، كحبي للغناء، والحنين لأغاني أمي. تذكرت تلك الأماسي حين كنت أستمع في آخر الليل إلى الشعر والموسيقى، وأغفو على صوت الكلمة واللحن الجميلين.

كل شيء جميل، وكل ما حولي أيضاً، وحين أعود لتلك الحقبة. يوم تغرّبت وتشتت، تنتابني مشاعر لها علاقة بعدم الاستسلام، وبضرورة الوقوف في وجه

www.alkottob.com

كل دخيل، وبوجوب المقاومة، وقد أتساءل بطريقة لا تخلو من الاستغراب المشوب بالحذر عن أولئك الدخلاء، الذين شاركوني الحياة وقضّوا مضجعي. كيف جاؤوا؟ وأفكر كيف رحلوا؟ وقد أجيب بأنني أدري، أو أنني لا أدري. أما ما أنا موقنة منه، فهو آخر الكلمات التي استمعت إليها، واستوطنت في نفسي وذاكرتي. كانت "ضرورة التمسك بالأرض" ثم مرة أخرى "ضرورة التمسك بالأرض".

تمت

2001/6

**

www.alkottob.com

صدر للكاتبة:

1-وجه وأغنية	قصص	قوس قزح	1989
2-قوانين رهن القناعات	قصص	اتحاد الكتاب العرب	1991
3- هرولة فوق صقيع توليدو	رواية	دار الحصاد	1993
4- عند التلال- بين الزهور	رواية	دار الحوار	1995
5-الحب في ساعة غضب	رواية	دار الأهالي	1998
6-توليدو ثانية	رواية	مكتبة بالميرا للتوزيع	1998
7-أجمل النساء	قصص	اتحاد الكتاب العرب	2000
8-أول حب- آخر حب	رواية	دار الحوار	2002
9-الحب أولاً	قصص	قيد الطبع	وزارة الثقافة
10-الشبيهة	رواية	مخطوط	

**

www.alkottob.com

رقم الإيداع في مكتبة الأسد الوطنية

الدفـــلي: روايـة / مـاري رشـو- دمشـق: اتحـاد الكتـاب العـرب، 2002 - 113 ص؛ 24سم.

1- 813.03 ر ش و د

2- 813.009561 ر ش و د

3- العنوان

4- رشو

ع- 1121 /2002/7

مكتبة الأسد

❑❑

www.alkottob.com

www.alkottob.com